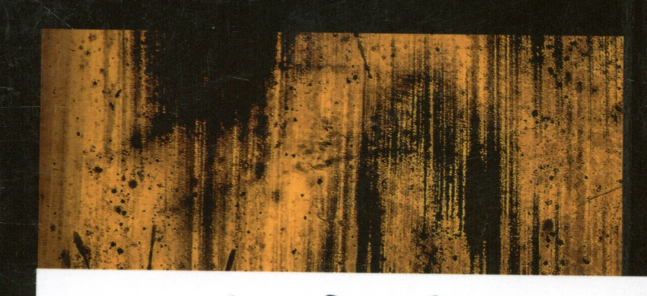


هدى حمد

الإشارة برتقالية الآن

الجمعية العمانية للكتاب والأدباء
THE OMANI SOCIETY FOR WRITERS & LITERATI



الإشارة برتقالية الآن

هدى حمد

الإشارة برتقالية الآن







هدى حمد

الإشارة برتقالية الآن

المدقق اللغوي : منى السليمية

تصميم الغلاف: هلال البادي





ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-377-6

الطبعة الأولى 2013

الفهرس

إهداء

هلال

إلياس

تيم

يارا

نزهة روحي واخضرار الوقت

ما دمت مع امرأة،

فلن يصيبني مكروه

ماركيز

حبّة الرمان

لا تعرف من أين خرجت أو كيف، كل ما فعلته هو أنّها تحسست شفتها في الصباح الباكر، فتعثرت أطراف سبابتها بحبّة بحجم حبّة الرمان فوق شفتها السفلى.. فزعت البنت للأمر، وفي حركة سريعة غادرت السرير إلى المرآة الواقفة قَبالتها: «يا مرآتي.. يا مرآتي.. ما الذي نما دون علمي فوق شفتي السفلى؟»

أبعدت سبابتها، شاهدت الحبّة الممتلئة الناتئة تقف فوق شفتها السفلى. انتابها القلق.

«لم أرَ في حياتي كلها امرأة تسير بحبّة رمان كهذه».

أصرّت الأم على أن تصطحبها إلى المستشفى، وأصرّ والدها على أن يأخذها إلى «العالِم» الذي يعرف شيئا عن كل شيء.

نجحت الأم بادئ الأمر فأطاعت البنت أمها. جلست على كرسي الانتظار. فيما أعين المارة تراقبها، وتُردد همسا كثيرا حول حبّة الرمان تلك، إلا أنها لم تستمع لأحد.

فتحت البنت أذنيها جيدا عندما تحدث إليها الطبيب بعد

فحص طويل: «إنّها حبّة غريبة. لا قيح ولا صديد. هل تسبب لك الحكة مثلا؟».

- لا

- هل خرجت لك حبة مشابهة في أي مكان من جسمك من قبل؟

- لا

- بماذا تشعرين تحديدا ؟

- أشعر بثقلها فقط. كأن ذبابة ضخمة تقف فوق شفتي.

الغريب أنها لا تبدو طارئة. لا تبدو كانتفاخ. تبدو كجزء من جسدك. تبدو وكأنها ولدت معكِ.

(علّق الطبيب ضاحكا): ربما توحمت أمك على الرمان وهي حامل بك.

ثم اندفع بالضحك.

استسخفت الأم نكتته. تأكدت أنّ الطبيب لن يجدي نفعا، فقررت الأخذ بنصيحة زوجها. ذهب ثلاثتهم إلى «العالم» الذي يعرف شيئا عن كل شيء، وبعد فحص طويل لحبّة الرمان قال «العالم»: «الأمر خطير.. خطير للغاية» فزع الأب، وطار عقل الأم، وتنهدت البنت في مكانها.

قال العالم من دون أن يرفع بصره إليهم: «لا تظهر هذه الحبّة على شفة أي فتاة إلا إذا.. إلا إذا كان هنالك من يشتهي

تقبيلها من أهل الإنس أو الجن». نفض العالم رأسه لأكثر من مرّة: «أعوذ بالله .. أعوذ بالله».

شعر الأب والأم بلسعة نار غريبة تأكل صدريهما، حملا ابنتهما الوحيدة، والتي لم تتجاوز بعد أربعة عشر عاما إلى البيت. أوصى الأب زوجته أن لا تخرج البنت من غرفتها أبدا.

انتشرت القصة في القرية، تداول الناس حكاية حبّة الرمان والقُبلة، وحبس الفتاة في الغرفة.

لم يتمكن الأم والأب من مغادرة البيت لقضاء حاجياتهما المعتادة.. فهذا يلكز بكلمة، وتلك تشير بغمزة ماكرة، والبعض الآخر كانوا أكثر خبثا إذ نشحوا حبّات الرمان أمام باب بيتهما.

تفتح الأم الباب على ابنتها. تراقب حبّة الرمان التي تزداد حُمرة كل يوم، ولا أمل يلوح بزوالها، يدخل الأب في ساعات الظهيرة ويُشبعها ضربا: «قولي لي.. هل هنالك من رغب في تقبيلك حقا.. من هو.. من؟» تدمع عين البنت، تنتفض في مكانها، ولا تنبس بكلمة.

تبكي البنت وحيدة في غرفتها، وهي تشاهد الصديقات من نافذة غرفتها يلعبن في البعيد مع الدمى القطنية، ويتراقصن في لعبة الغميضة. تتمنى لحظتها أن تصبح عصفورا أو حتى دودة صغيرة تنسل من الشباك إلى الخارج.

لكن حبّة الرمان جعلتها ثقيلة، ثقيلة جدا، لدرجة أنها لم تعد تستطيع أن تغادر السرير في الصباح.

أخبرت البنت أمها أنّ الذبابة باتت تثقل على جسدها، وتوجب على الأم أن تُلقمها الطعام وهي نائمة على السرير. لم تستطع البنت أن تُحرك فكها أو أن تلوك الطعام، فكان على الأم أن تهرسه جيدا لها أو تكتفي بإعداد الشوربة.

دخل الأب ومعه موسى الحلاقة. قال بكلمات قليلة وصارمة في آن: «قد يبدو ذلك مؤلما الآن، ولكنك سترتاحين لاحقا، وسنرتاح نحن أيضا»

لم تبدِ البنت أية مقاومة أو رفض. ذرفت الأم الكثير من الدموع وهي تعطي ظهرها لابنتها ولزوجها الذي باشر بتر حبة الرمان.

لم تفتح البت عينيها. .نزفت الكثير من الدماء. . نظفت الأم سرير ابنتها، غيرت غطاء الوسادة لها، ودثرتها بالغطاء.

راقبت الأم الحبّة المشطورة إلى نصفين، التي لم تنشف منها دمعة الدماء المنسابة من دون توقف. قال الأب: «إنها نائمة الآن»

وضع يده على كتف زوجته الباكية: «غدا سنصحو كما نصحو في السابق. . دون أن يُعكر صفونا أحد».

يدان دافئتان تمسكان بيديّ البنت في الظلمة. فتحت عينيها

ببطء. كان ثمة وجه شاب ضاج بالحياة قِبالة وجهها. لم تتبين ملامحه جيدا. لم يُفلت يديها من يديه. رفع جذعها إليه. جلس في الجهة المقابلة لها تماما. غرس شفتيه في شفتيها. عضّ حبّة الرمان التي عاودت الالتئام بعد شطرها بـ «موس الحلاقة»، عضها بقوة، ولم تشعر البنت بالألم. كان كمن يمتص دم الذبابة الضخمة الماكثة دون حراك فوق شفتها. اكتفى بقبلته وغادر الغرفة.

مررت البنت طرف سبابتها فوق الشفة السفلى. لم تكن هنالك حبّة رمان هذه المرّة.

في صباح اليوم التالي عادت الحياة كما كانت، الشمس ساطعة، المارّة يُلقون التحية بمحبة، كل شيء كما هو. باستثناء البنت التي لم تعاود الصحو مرّة أخرى.

امرأة في بيت نفيسة

إنها تعرف كل شيء عن «نفيسة». تعرف حياتها كاملة، وذلك ما كان يتعبها. وجود كائن دائم معها في مكان واحد ومشترك. إنها المرأة الوحيدة التي تنكشف على كل أسرارها، تلك الأسرار التي احتفظت بها بعيدا عن الأعين لأعوام طويلة. إنها تعرف أوقات فرحها، وأوقات حزنها. ما يُعجب «نفيسة» وما لا يعجبها. تتجول في بيتها كل صباح قبل أن تصحو من نومها. تفتح الشبابيك لتسمح للضوء بالدخول، وتجمع أوساخ سهرة البارحة عندما جاء صديق زوجها وزوجته.

ترش ملطف الجو الذي أحضرته مؤخرا، ولم تعجب زوجها رائحته القوية. تحمل كيس الزبالة بخفة دون أن تحدث صوتا، توقظ الأطفال واحدا تلو الآخر، ثم تفرك أجسادهم جيدا بالليفة والصابون. بعدها تلفهم بالفوطة، ويتعالى شغبهم.

تفتح نفيسة عينيها ومن ثم تغمضهما مجددا، وعندما تخرج فاردة جسدها الناعس يتعلق الصبي والطفلة بثوبها القصير،

فتنحني عليهما بالقبلات. تبتسم لها المرأة. فتتجاهل وجودها وهي تدلف إلى غرفة الجلوس مع ضجة الطفلين. تتساءل مع نفسها: «ماذا تريد مني هذه المرأة، ولماذا لا أستطيع الاستغناء عنها!».

منذ أن جاءت، والزوج نافر منها، يردد عبارته الغبية: «لا يجوز أن تلتصقي بي عند دخولها، لا يجوز أن تلبسي قمصان نومك القصيرة خارج غرفة النوم، ولا أن تضعي رأسك على كتفي بحجة النوم في الصالة عند مشاهدة الأفلام».

زوج «نفيسة» لا يعرف أن وجهها بالغ السمرة، ولكن تلك المرأة اكتشفت ذلك عندما كانت تحضر لها البخار المنزلي مع شرائح الخضار والروب. زوج نفيسة لا يعرف أن الشعر الأبيض بدأ يغزو جدائلها لكن تلك المرأة بدأت تعرف، وهي تعد لها صبغة الحناء الهندية لتصبغ به شعرها. إنها الجنية التي تعرف كل شيء في البيت.

منذ زمن ليس بالبعيد كانت «نفيسة» تصرخ وتكيل الاتهامات لزوجها، ومن ثم تنغرس كنبتة لينة في صدره لتبكي. أما الآن فلا يمكنها سوى أن تبتلع صوتها إلى الداخل، لكي لا تنقل تلك المرأة قصتها للأخريات عندما تلتقي بهن. ستفعل ذلك بالتأكيد. فلقد أخبرتها تلك المرأة بالكثير من الحكايات بعربيتها المتكسرة عن بيوت أخرى عملت فيها. حكت قصة المرأة التي لا تجيد الطبخ، وقصة

المرأة الغيورة على زوجها، والرجل الذي تركت بيته لأنه كان يتحرش بها. حكت الكثير من الحكايات لـ نفيسة لذا لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تغامر وتطلق صوتها، لأن صوتها لن تمتصه الجدران كما يحدث في كل مرة بل سيسافر بعيدا وإلى اتجاهات لا تعرفها.

هذه المرأة تعرف الكثير عن نفيسة. تعرف أسرارها الخاصة في غرفة نومها. طلبت منها مرارا ألا تنظف الغرفة، لكي لا تتعرف على أسرارها الصغيرة، ولأن نفيسة امرأة كسولة، كانت الغرفة تبقى على قذارتها لعدة أيام. إنها تعرف كل شيء. تعرف متى يلتصق الجسدان، ومتى ينفكان عن بعضهما البعض. كانت «نفيسة» متأكدة أن أذن المرأة ملصقة بالباب، وأنها تحسب أنفاسهما نفسا نفسا لأنها تنام في الغرفة المجاورة تماما مع الأطفال.

لم يكن وجود المرأة الغريبة في البيت وجودا مريحا بالنسبة لها. كم من المرات انسحبت بعيدا عن زوجها في لحظاتهما الحميمية، وهي تهمس في أذنه: إنها بالقرب من الباب.

تُعدل من هيئتها، تستر قميص نومها الشفاف بثوب آخر من الحرير وتفتح الباب بقوة كمن سيتفاجأ بوحش يربض في الجهة الأخرى، لكنها لا تجد أحدا ثم تصرخ: لقد هربت.. هربت.. هل رأيت ذلك. يُغطي الزوج وجهه بالشرشف ويمنحها ظهره، وهو يزفر في ضيق من تصرفاتها الغريبة.

إنها تعرف كل شيء. تعرف ماذا ينقص من أغراض المطبخ، وما يحتاج الأطفال إليه. تكوي ملابس الزوج باهتمام بالغ. إنها تحتل البيت الذي يخصها. تعرف قبل أي شخص آخر متى تزورها العادة الشهرية، ويتعكر مزاجها كثيرا بسبب آلام المغص، والظهر بالرغم من محاولاتها الجادة في إخفاء ذلك. لا يهتم زوجها كثيرا بذلك التفصيل الصغير والمتكرر شهريا. ولكنها تتضايق كثيرا إذ يتعامل معها كشيء قذر و مقرف، وينسى دائما أن يضمها إلى صدره أو أن يمنحها قبلة قبل النوم كما يحدث في تلك المسلسلات المكسيكية التي تحب. زوجها يقول لها دائما: بأن الأفلام شيء، والحياة شيء آخر.

تغسل ملابسها الداخلية بحذر وتعلقها بعيدا عن عيني المرأة الأخرى، ولكنها تكتشف ذلك. تقرأ ذلك في عينيها. «ليس فضيحة كبرى أن تكتشف امرأة أخرى أن لي عادة شهرية» هكذا تحدث نفيسة نفسها: «بالتأكيد هي أيضا لها عادتها الشهرية، ولكني لا اكتشفها لأني لا أدخل غرفتها، ولا أفتش غرفتها بحجة التنظيف»

ترتجف نفيسة من فكرتها الكبيرة. أنها عارية تماما أمام شخص آخر. لطالما كان التعري أمرا مخيفا بالنسبة لها. أول مرة نظر شخص ما إلى جسدها عاريا كان أيام أن كانت تستحم في حوض مزرعة عمها، كانت في الصف الرابع الابتدائي.

نظر إليها ناصر ابن عمها نظرة مريبة، شعرت وقتها أنها ستموت. غطست في الماء، وأرادت ألا تخرج منه أبدا. سيأكلها ناصر بعينيه الحادتين. لن ترفع رأسها أبدا من الماء. ستتحول إلى سمكة. لكنها عندما اختنقت أخرجت رأسها واستنشقت الهواء، واختبأت وراء شجرة ليمون، وغيرت ملابسها وهي ترتجف. ثمة أعين تلاحقها. تتمشى على جسدها، تجرحها في العمق. اختفى ناصر، وكبر الحياء في صدرها. لم تعد تشعر بالأشياء من حولها بريئة، بل ملوثة ومغبرة. لكن ناصر لم يعرها اهتماما خاصا كما توقعت، لم يكن ذلك التفصيل من جسدها مغريا أو مهما. أصابها ذلك أيضا بالقلق، والخوف، تساءلت طوال الليل لماذا لم يكن ناصر فضوليا. لماذا لم يبق لزمن أطول ينتظر خروجي من حوض المزرعة وهو يعلم أني سأخرج، ولن أبقى لأكثر من دقيقة واحدة مستترة بالماء. أوقعها ذلك في الشك أن جسدها عادي للغاية، ولا يثير شيئا في الناظرين إليه.

تغسل ملابسها الداخلية بسرية كبيرة داخل حمام غرفتها. تغسل بقع الدم، وكأن أعين المرأة الأخرى معلقة في السقف. ترقبها أينما ذهبت. تنهب ما تبقى منها، وما تحاول أن تخفيه جيدا عن الأعين المترصدة. ترقبها وهي ترسل الرسائل القصيرة لصديقاتها في المساء. إنها تطبق على أنفاسها. تأكلها بشراهة. يضيق البيت عليها. تخرج لساعات طويلة للتسوق،

وعندما تعود تستقبلها المرأة بابتسامة احترام وإجلال وتركض إلى السيارة لتحضر الأغراض. تحذرها «نفيسة» من لمس الأكياس، وتنهرها بعنف.

ذات مساء قالت نفيسة لزوجها:

- لا أريدها في بيتي ؟

- وشغل البيت، والأطفال؟

- سأفعل كل شيء بمفردي.

في صباح اليوم التالي حجز الزوج تذكرة سفر، وبعد أسبوع واحد حلقت المرأة التي لم تحبها أبدا بعيدا جدا، وتنفست «نفيسة» الصعداء.

الحقيقة أنها ليست المرأة الوحيدة التي أزعج وجودها نفيسة، إذ إنها لا يمكن أن تجلس مع أي صديقة لأكثر من ساعة أو ساعتين. لا تستطيع أن ترد على الاتصالات الكثيرة التي تصلها لأنها تضجر بسرعة، تغلق ستائرها جيدا لكي لا يتلصص الجيران عليها. يطلب منها زوجها أن تهوي الغرف، إلا أنها تغلق كل شيء بإحكام.

يتساءل علي عمّا تحاول نفيسة أن تستره عن الأعين، ما الذي تخاف عليه إلى هذه الدرجة.

منذ أن سافرت المرأة وهي تقضي يومها في غسل الملابس، وكيها، وعندما تحرق إحدى دشاديش زوجها تلقي

بها في القمامة، وهي تردد: «كيف كانت تفعلها بنت الـ. . . تغسل وتكوي وتهتم بالأطفال وتبتسم أيضا، ما يغيضني أنها كانت تبتسم».

يمر الوقت ببطء، وتنحشر نفيسة أكثر في تفاصيل البيت. التنظيف، والغسيل، والطفلين. . و. .

وحينما تعاودها آلام الظهر والبطن كل شهر. لا يكون هناك من يعرف أو يحس بها.

في بيت سعيد

لم يكن يشبه سعيد كثيرا. كان أكثر امتلاءً منه. بشرته فاتحة، ولم يكن شعر صدره كثيفا. عيناه ناعستان إلا أنهما تشعان بالمشاكسة، والغمز.

لم تكن تدري كيف استطاع، وبكل جرأة، أن يتقلب على سرير سعيد، وأن يمر على «الزولية» التي اشتراها لأجلها من سوق التنين في الصين.

لم تصدق عينيها، وهو يفتح دولاب سعيد الخشبي، و يتفقد ثيابه، وحاجياته، ويُقلب بعض صوره الخاصة القديمة، و يُطلق نكاتا بذيئة عنه.

زادت جرأته عن الحد المعقول. حمل منشفة سعيد البيضاء على كتفه. دخل بها إلى الحمام مترنما بالغناء. سمعت صوت وقع الماء طائشا على جسده، كمن يمارس الرقص تحت الدوش الساخن.

خرج يلفُ المنشفة حول خصره، لحظتها لاحظت أنه ارتدى «شحاطة» سعيد، وأن كعبيه يفيضان منها.

نظر إلى عينيها مباشرة، أرسل إليها حديثا خادشا، وإن لم

يصلها بالكلمات. استدار بوجهه ناحية المرآة، لأول مرة في حياتها في ذلك البيت ترى وجها ثالثا غير وجهها ووجه سعيد في المرآة.

تناول المشط الأخضر، فانسابت أصابعه بخفة في فتحته الدائرية، وشرع يمشط شعره الأسود الطويل المبلل الذي كاد يُلامس كتفيه. استرعى انتباهه لثوان شيئا ما كان على التسريحة، عشر علب تختلف ألوانها وأحجامها وضعت على ترتيب واحد، قلّبها بين يديه، والتفت قائلا: «ما هذا»؟. أجابته «أدوية لمعالجة القشرة». قهقه الرجل عاليا جدا، وهو يعيدها إلى مكانها، «طبعا من يعمل في مهنته، سيصاب عقله أيضا بالقشرة» هكذا علّق، وقهقه مجددا، وهو يتعمد قرص إصبع قدمها الكبير.

* * *

لبست قميص نومها الحريري الذي يُحب سعيد لونه البنفسجي كثيرا. أسدلت شعرها على كتفيها، فدائما ما يوصيها سعيد: «اربطي شعرك في المطبخ، فكي شعرك معي».

لم تضع أي مكياج على وجهها، فقط الكحل الذي يُحبه سعيد ويجعل عينيها اللوزيتين أشبه بأعين البدويات.

لم تضع «الروج» على شفتيها لأن «الروج» في نظر سعيد يُفسد طعم القبلات.

حاصرها الرجل بغمزه المتواصل، أوشكت المنفشة أن تقع عن خاصرته، وهو يندس معها تحت الغطاء. لم يكن صوته يشبه صوت سعيد الخجول، وهو يقول: «نعيدها ثانية!»، لم تنتبه له، إلا وهو يتناول شفتيها بين شفاهه.

ظل قلبها يخفق بتسارع ظنا منها أن الأمر سينتهي ككل قصص الأفلام العربية، لكن سعيد لم يدخل. لم يقتحم باب الغرفة. لم يوقف قضم الشفاه لبعضها البعض.

عرس

تهمس أم العروس في أذن حبيب بن زهور بصوت منخفض «أبغاك تدخل، وتعمل دور الليلة..نزين!». . يُقرب حبيب يده من وجهه، ليُغطي أنفه وفمه مُخبئا ابتسامته الخجلة، بينما اليد الأخرى تتقافز في الهواء «أوووه..لا..لا»، يلكزه أبو العروسة مُداعبا «دور واحد قدام النسوان..والله يا بختك يا حبيب!»، يحمر وجه حبيب، وتضع أم العروسة ربطة ريالات في يده. يقبض حبيب على المبلغ ويدسه في جيبه.

منذ أن بزغ صدر حمدة من جسدها، وهي تلبس الملابس الفضفاضة، وتعكف شعرها تحت الأغطية الطويلة. عرس ابنة عمها كان المناسبة الأولى التي استأجرت لها أمها فيه فستانا يكشف نحرها وأعلى الصدر. تهمس أم حمدة في أذن ابنتها: «لبسي الفستان الأخضر اللي استأجرته عشانك..يمكن يتعدل بختك».

يجلس حبيب بن زهور وسط الرجال. جسده النحيف ذائبا تحت الدشداشة. وجهه شديد البياض. يجلس منكمشا في مكانه. يوزع الابتسامات، ورأسه يتحرك كرأس النعامة بين

الوجوه التي تدخل وتخرج. دخل رجل قوي البنية. شديد الاسمرار. ارتبك حبيب في مكانه. سلّم الرجل الأسمر على الجميع، وعندما وصل بالقرب من حبيب سلّم عليه بيد، وقرص أعلى فخذه بيد أخرى من دون أن ينتبه أحد لذلك، ومن ثم جلس ملتصقا إلى جواره.

لأول مرّة تتبين حمدة أنّ صدرها مكتنز، وخصرها نحيف. ظلت تلف وتلف داخل الفستان الأخضر الذي استأجرته أمها لأجلها، وقد ارتدته قبلها ما يقرب من عشر بنات من بنات الحلّة، بعد أن اشترته صاحبته الأصلية من دبي.

تحسست حمدة كامل جسدها، «كيف يمكن لشكل الفستان أن يُغير شكل الجسد»، فلأول مرّة ترى حمده أن امتداد عنقها جميل تحت العقد، وأنّ وجهها الذي لم تحبه يوما، مشرق للغاية عندما وضعت بعضا من الروج الأحمر الفاتح على الشفتين الصغيرتين، والكحل الأسود في عينيها السوداوين. كان ذلك مما تركته بنات عمها في علبة المكياج في الغرفة المجاورة للغرفة التي تتزين فيها العروس.

حاول الرجل البدين الأسمر أن يزحزح حبيب بن زهور من مكانه إلى الخارج عبر الكلمات، والإشارات، وعبر مسكه ليده وإفلاتها بين الحين والآخر، وكأن له رغبة في قول أو فعل شيء ما، إلا أنّ حبيبا تنهد معتذرا، «دفعوا لي واجد عشان أجي العرس.. ما أقدر أطلع معك». احتقن وجه

الرجل الأسمر البدين بالغضب، لكنه سرعان ما ترك يد حبيب، بمجرد أن رمقه أبو العروس بنظرة غير مطمئنة.

دخلت بنات العم إلى الغرفة، تفاجأن بحمدة أخرى لا تشبه ابنة عمهن التي يعرفن. انكمشت حمدة على جسدها خوفا من أن ينظر أحد إلى صدرها، تضاحكت بنات عمها الجريئات بفساتين شبه متعرية. فككن لها شعرها من ربطته. علا صراخ حمدة تحت صوت «الاستشوار» المرتفع.

جرّ أبو العروس حبيب من يده. سحبه وهو يهمس في أذنه «النسوان يريدوا شوية تسلية». امتعض وجه الرجل الأسمر، وبان عليه الغضب، عندما وقف حبيب وعدّل من وضع دشداشته المُسبلة، وخرج من المجلس وراء أبو العروس.

في المسافة بين مجلس الرجال، وخيمة النساء رفع حبيب طرف دشداشته تحت إبطه لكي لا تتسخ في التراب.

أخذت أم علوان مساحة كبيرة من حلبة الرقص القريبة من كوشة العروسة. أم علوان امرأة مدورة أشبه بكرة قدم ضخمة، كل ما استطاعته تحت وقع الموسيقى الصاخبة هو أن تهز مؤخرتها، لتتدافع الفتيات بالضحك.. كان وجهها شديد البياض، وكأنها ترتدي قناعا من الطحين، بينما عنقها ويداها شديدا السواد، وتضع على شفتيها المكتنزتين لونا فاقعا..

تستمر أم علوان بهز مؤخرتها. يستمر التصفيق والضحك.

توقعت حمدة أن تصفعها أمها على وجهها ما أن ترى الكحل في العين، والروج الزهري على الشفتين، توقعت أن تمسك بها من شعرها السائح على ظهرها بفضل الاستشوار، بعد أن كان مجعدا ورابضا على كتفيها لزمن طويل.

ظل قلب حمدة يخفق دون ارتياح، إلا أن إصرار بنات عمها على قذفها إلى وسط حلبة الرقص لمزاحمة أم علوان، جعل أمها تنتبه لها. كاد قلب حمدة أن يتوقف عن النبض في تلك اللحظة التي التقت عيناها بعينيّ أمها، إلا أنّ أمها أومأت لها برأسها إشارة بارتياحها، ومن ثم صفقت بيديها لكي تبدأ ابنتها بالرقص.

تدفق الدم إلى جسد حمدة، وعاد نبضها إلى طبيعته. أغمضت عينيها. تجاهلت وجود أم علوان بالقرب منها، رقصت كما كانت تفعل في الحمام عندما تختلي بنفسها، وحين كان يتعذر وجود موسيقى، تعوض ذلك بأن تدندن بينها وبين نفسها.

استحمت في موسيقى حقيقية هذه المرّة، فاستجاب الجسد بانسيابية فاجأت الجميع.

توقفت أم علوان غاضبة عندما شاهدت الأنظار كلها تُلاحق جسد حمدة، وتهمل رقصها الذي ينبغي أن تقبض ثمنه بعد نهاية العرس..

وقف أبو العروس بالقرب من باب الخيمة ممكسا بيد

حبيب، ثم أطل برأسه من الخرق الصغير في الخيمة متلصصا على حلبة الرقص، وشعور النساء المنسدلة كشلالات على الظهور. ظهر التحسر على وجهه وهو يتحدث إلى حبيب الذي يملك متعا لا يملكها سواه في الحلّة. . »أنا ما أقدر أدخل بس إنته بتدخل وبيندفع لك بعد»، مطّ حبيب شفته السفلى، وخرج صوته ناعما، «حتى على رزقي حاسديني!»، ربت أبو العروسة على ظهره ضاحكا، «اتهنى . . اتهنى. . »، ثم ما لبث أن دفع بـ حبيب إلى داخل الخيمة بعنف، حتى كاد أن يسقط على وجهه.

تدربت حمدة في حمام منزلها المشترك، على الوقوف على أمشاط قدميها، لتدفع جسدها نحو ميلان منسجم. علّمت خصرها الاهتزاز إلى أن تسري الرعشة على طول ساقيها. لم يكن يقطع انسجامها سوى الطرق المتواصل على باب الحمام من أجل رغبات أخرى. لكن كل ذلك لم يمنعها من التدرب على هز الأرداف، إلى أن يتحول الصدر إلى قطعتين من حلوى الهُلام.

وضع حبيب سبابته بين أسنانه مراقبا ظهور النساء الملتفات حول حمدة، أصدر تأوهات خفيفة في انتظار أن تلتفت إحداهن إليه إلا أن الجميع ظلّ مشدودا إلى ما يدور على حلبة الرقص.

انتبهت أم علوان إلى حبيب، ففرحت بوجوده، وكان فرصتها الذهبية لتستعيد ما سرقته منها حمدة.



تناولته أم علون من يده، «حبيب. . . الكل ينتظرك، وينتظر رقصك. . »، انتبه الجميع فجأة إلى اسم حبيب فاستدرن إليه، وبدأن بالتصفيق، والزغردة. تسارعت النساء بقذف جسده النحيل إلى حلبة الرقص. اصطدم جسد حبيب بجسد حمدة. فتحت حمدة عينيها وصرخت. صرخت وهي تستر صدرها بيديها، وتركض.

ضاع صراخ حمدة في صوت ضحك النساء، ربطت أم علوان شال كتفيها على مؤخرة حبيب، فبدأ جسده الرخو بالرقص، وهو فاتح العينين، وكلما مال جسده ناحية امرأة، قذفت به ناحية الأخرى، فيما الأخرى تُجهز له مبلغا صغيرا في جيب دشداشته، فيرتعش جسده اللين كالزبدة أكثر فأكثر.

ركضت حمدة باحثة عن شالها لتستر صدرها وردفيها، ركضت إلى أن اصطدمت بأمها.

قالت لاهثة وخائفة «ماه. . رجال دخل الخيمة. . رجال. . !»، ضحكت أم حمدة مشيرة بإصبعها إلى حلبة الرقص: «هذا ما رجال يا حمدة. . ما رجال. . شوفيه زين . . لا شنب ولا لحية!»

مفتاح الكلام

حاولت مرارا أن تتذكر ما قاله لها «معلم القرآن». هل تفتح المفتاح جهة اليمين أم اليسار؟ لكنها لم تُفلح في تذكر الجهة المناسبة. أدارت المفتاح يمينا، وقرأت الدعاء الذي حاول «المعلم» أن يُحفِّظها إياه فلم تفلح في حفظه، فكتبه لها في ورقة صغيرة، وطلب من ابنتها «مريوم» - التي يُعلمها القرآن مع بقية أطفال الحارة- أن تقرأ الورقة، وأن تردد الأم ما تقوله ابنتها، وهي تدير المفتاح.

سمته «سعد» بعدما قالت لها الجدة أن هذا الاسم يجلب الخير الكثير لصاحبه، وحدثتها عن كثير ممن اسمهم «سعد»، وقد أخذهم الاسم الفَرِح إلى أوسع أبواب الرزق، وبعد تلك الحكايات الجميلة لم تتوانَ أبدا عن تسميته بـ «سعد».

كان طفلا جميل الطلة. دائم الابتسام، وكثير الدلال إذ جاء بعد ست بنات، شعر سعد بتفرده منذ أيامه الأولى. بالرغم من نظرات أخواته المشحونة بالغضب والغيرة. فمن الممكن أن يكسر هذا، ويسكب ذاك. لا توجد أية محاذير على «سعد».

تحاول الأم مجددا أن تتذكر كيف تُدير المفتاح الصغير الذي

لا يُشبه أي مفتاح في الدنيا إذ سقط من السماء عشية ليلة القدر عندما دعا «المعلم» طويلا، وأطال في صلاته، وصلى قيام الليل لأجل أن يمنحه الله ذلك المفتاح فوجده صباح اليوم التالي تحت وسادته. فشكر الله كثيرا لأنه لم يرد له تلك الأمنية.

لم تكن الجدة صادقة تماما فيما يتعلق باسم سعد، فبعد أربعة أشهر من ولادته توفى الله أباه في إحدى رحلاته، فضاقت حال الأسرة، وانتهت خطبة الأخت الكبرى بفسخ الخواتم.

لم يشعر «المعلم» في حياته بالضعف إزاء أي سؤال يُعرض عليه، أو أي خدمة تُطلب منه، ولكنه وقف جامدا إزاء سؤال زوجته، وإلحاحها عندما بلغ طفلهما السابعة من عمره، ولم يتكلم، أو ينطق بأية كلمة.. رجا الله في ليلة القدر أن يمنحه مفتاح الكلام الذي يفتح به صوت طفله.

فرأى «المعلم» فيما يرى النائم أنه يفتح فم ابنه جهة اليمين ثلاث مرات، ومن ثم جهة اليسار ثلاث مرات، وهو يقرأ دعاء قذفه الله في روعه. صحا من النوم وهو يردد الدعاء لكي لا ينساه، ثم بدأ يبحث عن المفتاح في كل مكان في البيت، فمن الأكيد أن الله أودعه قريبا منه. بحث إلى أن هداه الله فوجده تحت وسادته.

أخبر زوجته أنّ الله أعانه لحل مشكلة طفلهما، ووضع له مفتاحا للكلام. صفقت الزوجة فرحا لذلك، ثم ذهب إلى طفله النائم فوضع المفتاح في فمه. حركه ذات اليمين ثلاثا ثم

ذات الشمال ثلاثا وردد الدعاء الذي حفظه عن ظهر قلب، وفي صباح اليوم التالي بدأ الطفل بتسمية الأشياء باسمها.

احتفظ «المعلم» وزوجته بذلك السر الإلهي، ولم ينبشاه لأحد إلى أن جاءته أم «سعد» تشتكي تأخر ابنها في الكلام، وتبكي بحرقة، ثم ذكرته بقصة ابنه الذي لم يتكلم بكلمة واحدة قبل السابعة من عمره، فشعر «المعلم» بالحرج، ورثى لحالها، وقرر أن يساعدها فناولها المفتاح الذي تقشر لونه الذهبي بالرغم من أنه احتفظ به في خزانته، وكتب الدعاء لابنتها «مريوم» لتعلمها إياه.

هنالك تفصيل صغير نسي أو تناسى«المعلم» أن يُخبرها عنه. فبعد عدة أيام من فرحه بمحاولات ابنه في الكلام، وخروج بعض الكلمات من فمه الصغير كمعجزة، أخبرته ابنته الأخرى أنها أضاعت مفتاح حصالتها التي خبأت فيها العيدية عندما كانت تلعب في غرفة والديها آخر أيام رمضان، وقد رأت المفتاح في يد والدها، فطلبت منه أن يعيده إليها. فرفض الأب ذلك، وقال إنه لا يعرف أي شيء عن مفتاح الحصالة، بكت ابنته طويلا، ثم كسرت الحصالة لتُخرج عيدية العيد، واحتفظ «المعلم» بالمفتاح في خزانته الخاصة.

حركت أم «سعد» المفتاح يمينا ويسارا في فم طفلها، و«مريوم» تقرأ الدعاء، نسيت الأم كم مرة ينبغي أن تكرر ذلك، وهل ينبغي أن تبدأ من اليمين أم من اليسار!!

طارش

لا يتحدد عمل حميد المقطوع بتغير فصول السنة من صيف وشتاء، كما لا يتحدد بليل أو نهار. لا يقول «لا» عندما يأتي العمل، ويكتفي ببعض الريالات عندما يُنهي المهمة. كانت تكفيه، وتكفي عياله الذين كبروا أسرع مما توقع.

لا يتحدد عمل حنان بفصول السنة من صيف وشتاء، لا يتحدد بليل أو نهار، وهي لم تقل «لا» عندما جاء العريس الأول لخطبتها، ولم تكن قد أنهت الإعدادية بعد. لم تتقاضَ عن زواجها إلا التعاسة. عندما ظنت أن الزواج هو أن يمشي رجل إلى جوار امرأة بالقرب من الشاطئ، يشتري لها حقيبة يد، وخاتم، والكثير من الذرة المسلوقة في المحلات التجارية الكبيرة.

حميد المقطوع قُطع من شجرته العائلية، فهو وحيد بلا أخوة وأخوات. كبر قبل أن يتعرف على والديه، وظل يُنجب طفلا «رزقه على الله» كل عام إلى أن ماتت زوجته.

هربت حنان ليلة عرسها من بيت العريس راكضة ما يزيد على ثلث ساعة من بيته إلى بيت أهلها، بكت في حضن أمها

طويلا، «يريد يغتصبني»، هنا فقط تذكرت الأم أنها لم تشرح لها بعض التفاصيل ظنا منها أنها غير مهمة.

وظيفة المقطوع بلا مسؤول، فلا مدير يُراقب أداءه لعمله، تكفيه ثقة الناس به، لينجز مهمته على أكمل وجه.

وظيفة حنان بمدراء كثر في بيت جدها، يُراقبون عنايتها لأطفالهم الذين يتركونهم في عهدتها ريثما يعودون من تلسياتهم المختلفة.

طرق المقطوع بيوتا عديدة لإطفاء غياب زوجته، وبرودة سريره. لكنه لم يكن يجرؤ على قول ذلك، كان يكتفي بالتلميح أن بيته «طاح»، فيما النساء يتندرن بشغفه.

رفضت حنان أن تعود لزوجها، ضربها جدها، ضربتها الجدة، نهرها أبوها المسافر في سماعة الهاتف، واحتضنتها أمها بقوة.

يتلقى المقطوع أجرته من أشخاص يحملون وجوها واجمة أو حزينة، ومؤمنة في مرات كثيرة.

تلقت حنان وثيقة طلاقها بعد ثلاثة أشهر من الركض في المحاكم، فتنفست الصعداء. لم تستقبلها المدرسة، فدرست في صفوف محو الأمية. ظلت في انتظار الحصول على شهادة، ظل ذووها في انتظار أن يأتي عريس آخر يدق الباب.

أكمل المقطوع في مهنته التي ورثها عن الرجل الذي رباه ما

يقارب ثلاثة وأربعين عاما، ولم يخرج منها يوما في إجازة، كما لم يسمح لأحد أن يخطفها منه.

تزوجت أخوات حنان الأصغر منها عائشة ونوره وعزة، وبقيت حنان في البيت. عندما حصلت على الشهادة الثانوية، تفاءلت وتفاءل ذويها، ولكن لم تأتِ الوظيفة، ولم يأتِ العريس أيضا.

تُشاهد حنان حميد المقطوع كل يوم يأتي فيه إلى بيت جدها، فيرجف قلبها خوفا منه. كانت ترسمه في كراس الرسم وهي صغيرة. رجلا بأنياب حادة، وببنية ضخمة، وكلما ناولها قطعة من الحلوى، ركضت بها مبتعدة، لتدفنها في مكان لا يتوقعه أحد، لم تذق حنان قطعة حلوى واحدة غرسها المقطوع في كفها، بالرغم من أن أخوتها كانوا يأكلون حلواه بشراهة.

في أكثر من مرّة راود حميد المقطوع السؤال عن حنان التي تُنفق وقتها وهي تربي أولاد أخوتها، وتطعمهم، وترعاهم في غياب أمهاتهم، وتذاكر لهم الدروس، وتغني لهم قبل النوم. كما راوده السؤال عن الرجل الذي أفسد ليلة دخلتها.

لم يكن هنالك سوى حلم واحد يتكرر في ليالي حنان السيئة. يد ضخمة تنهش كل جزء من جسدها، ثم تصحو لتبكي لساعات طويلة من دون أن يسمعها أحد.

في الليالي التي كانت تمر على المقطوع شديدة الكآبة. كان يُفكر فيها، ويلعن الشيطان.

قفز عُمر حنان إلى الواحد والثلاثين بسرعة كبيرة، لم تعد تحسب سنوات عمرها كما كانت تفعل، فهنالك من كان يحسبه عوضا عنها، ويذكرها بكلمتين لا علاقة واضحة بينهما «قطار» و«عنوسة».

جسد المقطوع ضخم، وضحكته عالية. عالية جدا، ووجهه الأسمر مشرق، تعرف حنان متى يأتي إلى بيت جدها، فصوته يتقدمه دائما، وهو رجل على ضعف حاله، لا يدخل بيتهم فارغ اليدين. في يده دائما حلوى و«مينو»، يكسب بهما محبة الجميع، ويظل قلب حنان في خفقان مستمر.

يجلس في الحوش يحكي كعادته باستمتاع لجدها الذي تخفف من لباسه، وأبقى على فانيلة بيضاء وإزار مخطط. كرر المقطوع بأكثر من صياغة أمر ذهابه إلى عمله في شهر واحد لأكثر من اثني عشرة مرة، ابتسم الجد، «ماشاالله. . تكسب زين».

لم تستطع حنان أن تتزحزح عن النافذة، وهي تسمعه يقول: «وأنا يا حبابي بغيت أتزوج»، يبتسم الجد، «الزواج ما عيب. . خذلك بنت من ثوبك». ابتسم المقطوع: «ثوبي أبيض يا حبابي، بعد المرحومة، العيال كبروا، وراحوا كل في حال سبيله، وأنا بقيت وحدي. . بيتي طاح»، استشف الجد ما لم يجعله مطمئنا: «إنته تشل الزين والشين على كتفك، الأبيض والأسود، بس في الدنيا ما تقدر تاخذ إلا بنت من أصلك وفصلك».

قفزت عينا المقطوع إلى الستارة التي تحركت بغتة. انتبه لعينيّ حنان. خفض رأسه وغادر.

من خلف الشباك سمعت حنان حديثا بين جدها والمقطوع. مازحه جدها: «واللي يشتغل شغلتك.. عنده بعد شرغة في الحريم!!»، ينخفض صوت المقطوع. يتضاءل جسده، يوشك على الاختفاء.

لا تسمع حنان بقية الحديث جيدا. تفترض أنه قال: «إنه يحب امرأة».. «لا هذا افتراض غير ممكن فما كان ليضحك الجد بتلك الصورة الهازئة، قال شيئا آخر مثل: أنا لا أحتمل رغبتي في...»، «لا لا يمكن أن يتجرأ على قول ذلك، وهو يجالس جدي»، لم يتوقف عقل حنان عن تخمين ما قاله المقطوع، ودفع الجد للضحك بتلك الهيستيريا.

فيما يقابلها ظهر جدها، ووجه المقطوع، ظلت حنان تعبث بالستارة في محاولة منها لجعله ينتبه لوجودها، لكنه لم يرفع عينيه هذه المرّة.

تسارعت ضربات قلب المقطوع. تمنى أن تبتلعه الأرض، بعدها خرج وهو لا يلوي على شيء.

اختلف حلم حنان تلك الليلة. رأت نفسها في ثوب أبيض، والمقطوع يصفق ويصفق. إلى أن طار بها.

اكتشف المقطوع أنه لا يستطيع كبح رغبته بالنساء، يتزايد

شبقه بهن، وقد بلغ ما يربو على الخمسين عاما، ووجه حنان يزوره كل ليلة. يأخذه إلى متع شتى.

اكتشفت حنان أن التفكير بالمقطوع سيغنيها عن التفكير بأحلامها السيئة.

مبكرا جدا تعرّف حميد المقطوع على حنان. شهد ولادتها. بالت على ثوبه مرات عديدة. قادها من يدها إلى الدكان. غمس أقدامها الصغيرة في حوض المزرعة، فارتعش جسدها لبرودة الماء مرات عديدة.

مبكرا جدا نفرت حنان من المقطوع. خافت من عينيه ومن حلواه منذ أن أخبرتها أمها عن مهنته. عن أولئك الذين يأخذهم إلى الجهة الغربية من القرية، ولا يعود بهم.

لذا دفنت كل الحلوى التي كان يزرعها المقطوع في يدها في حفر عديدة من حوش بيت جدها.

تفاجأ المقطوع مما كان يكبر في صدره. كانت حنان البنت الصغيرة. بعمر بناته، بنت سيد نعمته، واليوم بدأت صورتها تُحرض جسده وعاطفته في اتجاهات لم يألف لذتها من قبل. . لذا طرد ضحكة جدها الهازئة، واستلذ بحضور وجهها وجسدها، ولم يقاوم أبدا لذة التفكير فيها.

تفاجأت حنان بنفسها وهل تستبدل خوفها وعدم ارتياحها من المقطوع، بلهفة كبيرة لرؤيته، ومشاعر تدغدغ كيانها كما قد تفعل أغنية.

لم يُدنِ جدها من مجلسه أحدا كما أدنى حميد المقطوع إليه. كان ظريفا، وصاحب نكتة. يصبُ القهوة لضيوفه، ويجلس قريبا من ركبة الجد، وإذا ما حل ضيف ذبح رأس غنم وطبخ الذبيحة. يحدث كل هذا إلى جوار وظيفته الأخرى.

حميد المقطوع هو الوحيد الذي يُسمح له بدخول البيت وتمشيط الحجرات، وهو الوحيد الذي شاهد شعر حنان الأسود المنساب إلى خصرها. لم تكن فتاة جميلة. هذا ما تعزو إليه الأم تعثر بخت ابنتها، تحديدا بسبب قصرها وجسدها غير المتناسق.

لكن حدث عن طريق الصدفة والخطأ أن شاهد المقطوع شعر حنان. هذا ما أكدته حنان لنفسها حرفيا، «عن طريق الصدفة والخطأ»، كان صوته مرتفعا، وهو يتنحنح لتضع النساء الأغطية على الرؤوس، بينما يمر لقضاء حاجة من حوائج الجد، مشت حنان في تلك المسافة الفاصلة بين دورة المياه وغرفتها. شاهدها المقطوع لأول مرّة كالحلم. بثوب قطني طويل، ومن دون أكمام، وشعر مبلول، ووجه محمر لم ينشف منه الماء الساخن بعد. لم تكن أكثر من ثوان حتى اختبأت حنان في غرفتها، وبدأ قلبها محاولة الخروج من صدرها.

في مكان ما بالقرب من المرجل، كان قلب المقطوع أيضا



يُكرر ذات المحاولة. الخروج من صدره. حتى أنه لم ينتبه لملاعق الملح والفلفل الأسود التي ألقى بها بالقدر. حاول أن يتذكر. لكنه لم يتذكر سوى وجه حنان المحمر، وشعرها المبلول.

شاهدتها أمها، وهي تعتمر ارتباكها، «حنان . .خير. .؟»، ضاعت الكلمات منها، «ماه. .حميد المقطوع شاف شعري. .أنا والله ما كنت منتبه. .أنا. .»، لوحت الأم بيدها في لا مبالاة، «يوم حميد . .لا تشلي هم يا بنتي. . تراه بحسبة المحارم».

شاهد «صغرون» المقطوع وهو يعتمر ارتباكه، «مالك يا صاحبي»، ضاعت الكلمات منه، «أنا شفت حبابتي حنان. . شعرها المبلول. . وجهها. . والله»، لوح صغرون بيده، «لا تشيل هم. . ترانا نشوفهم، وكأنا ما نشوفهم».

كان ذلك في يوم الجمعة، عندما تركت حنان باب غرفتها مواربا، فكل واحد من إخوتها أخذ زوجته وأطفاله في مشوار، وبقيت وحدها في البيت، الأم منشغلة بالأحاديث في بيت جارتها، وجدها منشغل بمجالسة رجاله. المقطوع يروح ويجيء في حوش المنزل، مستجيبا لكل ما يطلبه الجد.

ظلت حنان مغمضة العينين على سريرها، تردد مع نفسها: «سيدخل الآن . .سيدخل . .سـ. .»، كانت على يقين من أنه سيأتي، إنه الرجل الوحيد الذي يدخل إلى البيت بحرية.

لم ترتبك هذه المرة، حتى وهو يفتح باب غرفتها، نظرت إليه، لم تستر رأسها وكتفيها بالشال كعادتها، تقدمت ناحيته.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تنشغل فيها حنان بجسدها متجاهلة، كل الأصوات الأخرى.

كانت هذه هي المخالفة الأولى التي يرتكبها المقطوع، المرّة الأولى التي يفعل فيها ما يريد من دون أن يتلقى الأوامر من ولي نعمته.

تناولت يده في يدها، فأمسك على يدها وقبّلها منحنيا كعادته في تقبيل يد جدها. أزعجتها طريقته في التقبيل. ازعجت المقطوع الحركة التي سحبت بها حنان يدها من يده. لكن صوت قوي جاء من الخارج ليخرجه من توهجه. أدار لها ظهره بتوتر: «هذا الصوت.. أعرفه زين..»، وضعت يدها على كتفه، ادارته نحوها بلهفة لم تختبرها من قبل. لكنه ضغط على يدها بحسرة كبيرة، ثم أنزلها من على كتفه، وخرج مستجيبا لصوت الطارش.

ألوان شمعية

ضرب الأب سيفا ضربا مبرحا، تدخلت الأم، فقال لها الأب منفعلا: «ابنك يرسم على الجدران»، بكى سيف، ثم كسر الألوان الشمعية إلى جزئين، وبعضها إلى ثلاثة.

نام سيف في الغرفة المجاورة لغرفة والديه كما هي العادة، لكن هذه المرة على سرير ميري كما ليس معتادا. قبلته ميري في فمه كما تفعل ذلك خفاءً، وضمته إلى صدرها بحنو. أفهمته بعربية مُكسرة أنّ والده يضربه لأنه يخاف عليه، لم يفهم سبب دفاعها عن الأب، فاندس في حضنها أكثر.

رسم سيف على جدار غرفة الصف باللون الشمعي الأحمر الذي يحب. عاقبته المعلمة بأن يرفع الكتب على يديه عاليا. لم ترتخِ يداه. ظل يفكر في صدر ميري.

عاد من المدرسة. لم يُخبر أحدا عن عقاب المعلمة، ولم ينتبه أحد لضرورة أن يسأله عن شيء. تناولته ميري. ضمته إلى حضنها. قضمت طرف أذنه بشفتيها، فابتسم لها.

عصر ذلك اليوم سقت ميري الحديقة الكبيرة، بينما كان

سيف يرسم وجوها لا تضحك على جدار الحديقة، وبخته ميري، «بابا يضرب سيف»، واستمر سيف بالرسم.

اكتشفت المعلمة مجددا وجوها عابسة على الجدار. جرّت سيف من يده إلى مكتب الأخصائية.

في جمل قصيرة شرحت المعلمة للأخصائية ما فعل سيف أكثر من مرّة. توددت إليه الأخصائية، وطلبت منه الجلوس، لم ينظر إلى وجهها أو إلى عينيها، وهي تسأله: «ليش تشخبط على الجدران يا سيف». رفع عينيه إلى عينيها في اللحظة التي قال فيها: «أنا أرسم». عادت الأخصائية بظهرها إلى الوراء مبتسمة: «بس يا سيف انته تعرف أن الرسم حرام».

ظل سيف صامتا، فتغير شكل ابتسامة الأخصائية الاجتماعية، وهي تضيف «انته ما تعرف.. البيت اللي فيه رسم وتصاوير ما تدخله الملائكة!». لم تكد تُنهي الأخصائية جملتها حتى فرغ الكرسي المقابل لها من جسد سيف.

رسم سيف على جدران غرفة ميري أشجارا وبحرا وسماء، وعصافير ترقد في أعشاشها، لوّنها بألوان شمعية حمراء وبرتقالية وزرقاء وخضراء. كتمت ميري دهشتها بأن وضعت يدها على فمها، وهي تُراقب فوضى الغرفة، وتستشعر غضب الوالدين في غيابهما. قفز سيف إلى حضنها فرحا، «ميري لن يدخل عزرائيل غرفتك بعد اليوم».

رسائل وردة

فكرت وردة أن تكسر التلفاز لتخرج أبطالها الذين تحب. أحضرت حجرا كبيرا ثبتته في راحة يدها وكادت أن تقذف به في وجه التلفاز لولا أنها تذكرت حوارها القصير ليلة الأمس مع أمها عندما قالت: «سأنقذ أصدقائي . . . سأكسر التلفاز» فردت عليها أمها: » لن تجدي إلا الأسلاك يا وردة». ارتخت قبضة يدها وهي تردد: » ماذا لو كانت أمي محقة. . . ماذا لو لم أجد إلا الأسلاك؟؟»

قاومت رغبتها الملحة في إنقاذ أبطالها المفضلين. قاومت طويلا لدرجة أنها لم تفلح تلك الليلة في النوم جيدا.

اجتاحتها رغبة أخرى في أن تلتصق بتلك العوالم السرية. أن تدخل منطقة الضوء وألا تغادرها أبدا. بحثت طويلا، ولكنها لم تجد ثقبا صغيرا في التلفاز يجعلها تنفذ إليه.

تعبت أم وردة من التحايل عليها لاصطحابها في جولة إلى البحر، أو إلى «الستي سنتر» القريب من أجل اللعب. كانت وردة تفتح التلفاز لتدخله بكل حواسها، ويبقى جسدها باردا دون حراك على الكرسي. يمر الجميع من حولها دون أن

تراهم. يحرك أبو وردة يده أمام وجهها ولكن عيناها لا ترف، ويدخل أخوها غسان بكل شغبه ليقذف بكرته عاليا وتبقى وردة ساهمة تتابع باهتمام غريب. ينتاب أم وردة قلق عارم وتتحادث طويلا مع زوجها بشأن وردة المسمومة بالتلفاز:

- إنها لا تتحرك قيد أنملة عن هذه الشاشة اللعينة.

- عندما حرمناها من المشاهدة لاحظتِ ما حدث. توقفت عن تناول الطعام، ودخلت في حالة مخيفة من الكآبة.

- ولكن..

- يكفي أن وردة متفوقة دراسيا، ومعدلها مرتفع هذا العام. مدرسة اللغة العربية قالت إنها تكتب أفكارا لا يفكر بها أحد، وإنها تأخذ أعلى الدرجات في التعبير الإنشائي.

عادت وردة من المدرسة تمشي بتثاقل، والكآبة ترتسم على وجهها. شاهدتها أمها المنشغلة بإعداد وجبة الغداء في المطبخ. لم تفتح وردة التلفاز كعادتها. خرجت الأم من المطبخ وسألتها بخوف:

- ما بك؟

- هل خلقنا من طين يا أمي؟؟

- أنت في الصف السادس الابتدائي، وتسألين هذا السؤال؟.. بالتأكيد خلقنا من طين و..

ركضت وردة إلى غرفتها، وأغلقت الباب على نفسها،

ومن ثم رفضت أن تستحم. أخبرتها أمها بعنف هذه المرة بضرورة الاستحمام فردت عليها:

- كيف سأستحم وأنا من طين؟.. أنا متأكدة أني سأذوب كما تذوب القلعة الرملية بالقرب من الشاطئ كلما لامسها الماء.

كذب عليها غسان قائلا: «قلعة الرمل تذوب يا غبية بسبب ماء البحر المالح، بينما نحن نستحم بالماء العذب..»

منذ أن قال غسان تلك الجملة، وهي تشعر بأريحية هائلة تحت «دوش» الماء. تطيل في الاستحمام وترقص كما تفعل عادة تحت المطر.

«أليس من الخطأ ألا نخبرها الحقيقة؟» هكذا تساءلت أم وردة. فرد الزوج:

«أتعبتني معك.. عندما رفضت وردة أن تستحم ثلاثة أيام متوالية غضبت وطلبت مني أن أتدخل، وعندما وافقت أخيرا على الاستحمام.. مازلت قلقة!!»

«وافقتُ بسبب كذبة غسان» قالت له. فأجاب باقتضاب: «ولكنها تستحم الآن، وهذا هو المهم».

في المساء زار جد وردة المنزل. احتضنته وبدأت تسرد عليه الحكايات كعادتها.. تبادلا الضحك واللعب برفقة غسان الذي يكبرها بعامين. تأملت وردة جلد جدها المتجعد. لمست يداه وقلبتهما بين يديها:

- جدي يداك متجعدتان؟؟

- نعم. . أنا رجل عجوز يا وردة

-لِمَ أنت عجوز يا جدي؟

«ضحك» الجد

- لأني كبير في السن

- لم أفهم. . . !!

- يمر الإنسان كقطار سريع. . توووت. . .توووت . . من الطفولة للشباب ومن ثم يصبح بيدين مجعدتين!!

- ثم ماذا يا جدي. . ؟؟

- ثم يعود التراب إلى التراب يا وردة.

دهشت وردة. ابتعلت ريقها في غضب. اكتشفت لحظتها أن غسان كاذب كبير. انسحبت إلى غرفتها وبكت بحرقة. شعرت أنها لن تستطيع أن تثق بما تقوله لها أسرتها مجددا رددت في نفسها: «إنهم يكذبون».

نزلت مجددا إلى حيث يجتمعون. كان جدها يوشك أن يبدأ بتناول طعام عشائه

- جدي ما كان ينبغي عليك أن تستحم وأنت صغير. انظر ماذا فعل بك الاستحمام!

- ماذا. . . ؟؟

- كثرة الاستحمام تجعلنا نذوب. نكبر في السن. ثم نموت بسرعة.

انفجر الجد بالضحك. ضحك غسان. ضحكت الأم والأب، واندفعت وردة بالبكاء.

شعرت وردة بخيبة كبيرة تكبر في روحها. شعرت أنها تنفصل قليلا قليلا عن أسرتها بالرغم من محاولات أمها ووالدها التحدث إليها إلا أنها لم تكن تصغي لأحد. فقط إلى ذلك الصوت الذي يكبر بداخلها.

كان والدها يضيق ذرعا بتصرفاتها، بينما تبقى أمها قريبة منها خوفا عليها من تصرف أحمق. ويوما بعد آخر كانت وردة ترفض الاستحمام.

كان السؤال يكبر في رأس وردة الصغير ليفتش عن إجابة. ينغص عليها النوم، ومتابعة التلفاز المعتادة، ويدفعها لأن تكتب الكثير من الرسائل عندما يحبسها والدها في الحمام أملا في أن تستحم. تكتب الأسئلة ثم تغرقها في المرحاض. ذات يوم فكرت وردة أن لا تغرق رسالتها، وان ترسلها لأحد ما.

قفزت إلى رأسها فكرة أن تكتب رسالة إلى الله، ولأن الله في السماء كما تقول مدرسة التربية الإسلامية تركت وردة رسالتها على سطح البيت:

«يالله.. أنت تسكن في السماء وتعرف ما لا أعرف. خلقتنا من طين وطلبت من أمهاتنا أن يأخذننا كل صباح

للاستحمام. الشامبو يؤذي عيني يا الله، والصابون يجعل جلدي يتجعد. أخشى أن أصبح عجوزا كجدي. فقط أخبرني هل ينبغي حقا أن أستحم؟».

وضعت اسمها أسفل الرسالة، لكي لا تختلط رسالتها مع الرسائل الأخرى التي يرسلها العباد، ثم وضعت حجرا صغيرا فوقها ونزلت مسرعة.

في اليوم الثاني صعدت إلى السطح بتوجس. تمنت من أعماق قلبها أن يأخذ الله رسالتها أو أن يترك لها ردا لكنها وجدت الرسالة في مكانها ولم يكن هنالك رد.

في اليوم الخامس قذف بها والدها بغضب في حوض الاستحمام وغمرها بالماء وهي تصرخ. لكنه لم يستجب لبكائها وخوفها من الموت إلى أن دخلت أمها وهدأت من روعه.

صعدت وردة صباح اليوم السابع قبل أن تذهب إلى المدرسة إلى السطح. لم تجد رسالتها. طار قلبها فرحا. «أخذ الله رسالتي. هذا هو الجواب. لن يضر الاستحمام بجسدي ولن أتجعد كجدي المسكين».

تغير مزاج وردة. أصبحت فرحة. تشاكس غسان من حين لآخر، وتستحم مرة واحدة كل يومين بمعدل خمس دقائق وبدون شامبو أو صابون. كان هذا هو شرطها الصعب الذي فرضته على الجميع.

تجلس لساعات طويلة أمام التلفاز، وتعاودها فكرة أن تكسر الشاشة، ثم تقول في نفسها: «ماذا لو لم أجد إلا الأسلاك».

نعمت أسرة وردة بهدوء استمر إلى بداية الإجازة الصيفية، ولكن ما أن أغلقت المدارس أبوابها، وبدأت العطلة حتى بدأت وردة تشكو من ألم حاد تصاعد في معدتها. كان هذا هو سرها الصغير الذي لم تجرؤ على أن تقوله لأحد. انبطحت تحت السرير. وضعت دميتها القماشية التي تحب فوق أصابعها ثم سألتها: «هل سأموت يا دميتي الحبيبة؟». حركت الأصابع رأس الدمية ثم خرج منها صوت يشبه صوت وردة: «نعم يا عزيزتي. سوف تموتين لأنك لم تستمعي لكلام أمك وأكلت بذور البرتقال».

بكت وردة بشدة. قامت من نومها تلك الليلة سبع مرات. ثم قررت ألا تصدق الدمية أيضا، وأن تكتب رسالة أخرى إلى الله. فتحت الضوء بهدوء، تناولت ورقة وقلما من حقيبة المدرسة ثم جلست إلى طاولتها وكتبت:

«يا الله شكرا لأنك أخذت رسالتي الأولى، وأتمنى أن تأخذ رسالتي الثانية. لقد أكلتُ بذور البرتقال بالرغم من أن أمي طلبت مني أن أخرجها وأن أضعها جانبا في الصحن. فعلتُ ذلك لأكثر من مرة. لن أكذب عليك يا الله. بالتأكيد أنت تعرف كم بذرة الآن في معدتي. مدرسة التربية الإسلامية

قالت إنك تعرف كل شيء عنا. ولكن هل سيحدث معي كما حدث مع بطلي المفضل في الفيلم؟.. لقد نمت شجرة برتقال كبيرة في معدته. خرجت أشواكها من أذنيه ومن فمه، وكان يتألم بشدة. أخبرني يا الله هل ستنمو شجرة البرتقال في معدتي أنا أيضا؟».

نامت وردة تلك الليلة على الطاولة، واضعة رأسها على الرسالة، وفي الصباح طوت الرسالة جيدا ووضعتها بحذر في صدريتها الداخلية، وصعدت إلى السطح واضعة رسالتها الثانية تحت الحجر. نزلت راكضة، و بين الفينة والأخرى كانت تصعد لتتأكد هل أخذ الله الرسالة أم لا. تصعد بفرح عارم، وتعود بخيبة ثقيلة.

قال أبو وردة لزوجته وهما يتناولان بعضا من الفاكهة: «حال وردة غير مريح» تناول غسان قطعة تفاح من يد والدته وقال: «بالأمس سمعتها تبكي في غرفتها وتقول: «سأموت من الألم». فزعت الأم، ونادتها بصوت مرتفع وهي متسمرة أمام التلفاز.

«هل يؤلمك شيء يا حبيبتي؟»

حبست وردة دمعتها وقررت أن تصمد قليلا قبل أن تقول سرّها لأحد بالرغم من أنها كانت تشعر بالألم وهو يتصاعد بقوة من معدتها. كان الألم في أحيان أخرى يتربع على عمودها الفقري. في المساء شعرت وردة أن أقدامها متنملة.

فكرت في سرّها «لا بد أن شجرة البرتقال بدأت تنمو وتكبر». حاولت والدتها أن تتحدث إليها إلا أنها كانت تلتزم الصمت. لم تستطع النوم مجددا تلك الليلة بسبب الغثيان. دخلت إلى الحمام أدخلت فرشاة الأسنان إلى حلقها رغبة منها في تحسس الشجرة لكنها لم تستطع أن تكبح رغبتها في التقيؤ.

صعدت لأول مرة في حياتها بعد منتصف الليل إلى السطح، فوجدت الرسالة في مكانها تحت الحجر. نزلت والدموع تملأ عينيها توكأت على الجدار لكي لا تسقط من السلم المرتفع. بكت على فراشها إلى أن تعبت ونامت.

في الصباح عثرت على بقعة دم كبيرة على فراشها الوردي. صرخت بصوت مرتفع إلى أن اجتمعت أسرتها بالقرب من البقعة الحمراء:

«شجرة البرتقال ثقبت معدتي».

واحد اثنان ثلاثة

«وااحد . . اثنااان ثلاااثة . . هكذا يُمكنني أن ألفت انتباهه إلى فستاني الجديد. استدارة قصيرة لطرف الفستان في هذا الاتجاه، واستدارة أخرى في الاتجاه الآخر، ويخفق قلبه . . »

لكن محاولة التعبير الحركي تلك تُخفق، ويبقى الزوج متململا في مكانه.

لسبب أو لآخر بدا لها أنّ لفت انتباه هذا الرجل صعب للغاية، وأن الفستان البرتقالي الفاقع فوق بشرتها البيضاء، لم يُحدث فرقا كبيرا لديه، فكل ما استطاعه في تلك اللحظة التي يدور فيها الفستان، التعقيب قائلا: «جيد»، حدث ذلك بعد مراقبته للفستان بنصف عين، وللحظة خاطفة، وكان ذلك أسوأ رد يمكن أن تسمعه امرأة ترتدي فستانا جديدا أمام رجل تحبه.

«ربما وجبة العشاء تفي بالغرض»، جلس بالقرب منها بعد أن خلعت فستانها البرتقالي، وارتدت بلوزتها الزرقاء، وبنطالا أبيض يصل إلى ركبتها. تناول وجبته بهدوء، ضاغطا بين الحين والآخر على أزرار هاتفه. كانت تستعد لقول شيء ما. لكنّ مطر «المسجات» ظل يهطل.

«وااااحد اثنااان ثلااااثة.. حان الوقت لأفاتحه بالأمر».. لكنه لم يرفع عينيه عن طبق شوربة الجزر، ظلّ يزدردها وهو يحدث صوتا لا تحبه، إلا أنها اعتادت عليه، ظلّت في انتظار أن يرفع عينيه إليها، على الأقل كان ذلك سيشجعها لتقول ما كان يربض على صدرها.

رفع عينيه أخيرا ليقول شيئا ما، «لكنه دوري أنا، لن أسمح له بأن يتحدث قبلي.. هيا.. تشجعي.. واااحد اثنااان ثلااثة»، لكنه كان الأسرع: «كنتُ أفضل تناول الشوربة مع مكعبات ماجي والبيض.. صدقيني كانت ستكون الشوربة ألذ بكثير من إضافة الجزر إليها»، هكذا عقب ببروده المعتاد، بالرغم من أنه ازدرد آخر قطرة من طبق شوربة الجزر. ابتلعت الكلمات التي أوشكت على أن تتدحرج من فمها.

أجهز على فخذ الدجاجة فأكله معلقا عينيه على شاشة التلفاز.. «يا إلهي لماذا نسيتُ إغلاق التلفاز في هذه اللحظة الحاسمة والمنتظرة». بفم ممتليء عن آخره بفخذ الدجاج قال: «يقتلون البشر كما يفعلون بالحشرات.. يال الإبادة البشعة»، كان متأثرا للغاية من الصور التي كانت تظهر على شاشة الأخبار، إلا أن ذلك لم يمنعه من تناول ما تبقى من فخذ الدجاجة ملحقا به صدرها أيضا.

«ربما عندما نتناول طبق الفاكهة، يصبح الكلام أسهل». يقضم التفاحة قبل أن يقطعها. عادة ما تقسم هي التفاحة إلى

أربع قطع تلقمه طرف قطعة التفاح الواحدة، وتأكل هي طرفها الآخر في نفس اللحظة، ويعيدان الكرّة معا إلى أن تنفد القطع الأربع، ولكن إن تركت له المبادرة، فإن أقصى ما يمكنه فعله هو أن يأكل نصف التفاحة، ويترك لها النصف الثاني. . «لا أدري لماذا يفكر أن الأمر سيان». مرة واحدة تجرأت وأخبرته أنها لا تحب أن تأكل النصف المتبقي من تفاحته. تفاجأ كثيرا وقتها وعقّب: «إنك تفعلين الشيء نفسه». يُذكرها ذلك بنساء الهند اللواتي يأكلن بعد الأزواج ما يتبقى في الأطباق، وهن يتوهمن ما يكنه الزوج لهن من شراكة وحب.

ربما حدث سوء الفهم لأنّ زوجها لم يستوعب بعد حيلة التفاحة والقُبلة التي كانت تحاول أن تسرقها منه بالحيل والألاعيب!

«انتهى وقت الألاعيب. الآن سأخبره بكل شيء دفعة واحدة. لن أشعر بالخجل ككل مرّة»، لكن ما أن انتفخ بطن الزوج بوجبة عشاء دسمة، عقبها طبق من كعك الشوكولاته، حتى تمدد على الكنبة، واستمر في تقليب المحطات الفضائية، وفي الوقت الذي كان يضغط أزرار التحكم، كان جرس إنذار يرن في قلبها. «انتهى وقت الكلام. . انتهت كل فرصكِ الممكنة».

صديقتها الناجحة في إدارة علاقتها مع زوجها أخبرتها عن فكرة مدهشة. السلة السرية. ضحكت وهي تتساءل: «وما هي

السلة السرية؟». أجابتها: «السلة التي تضعها الزوجة الصالحة بالقرب من السرير. تحديدا بالقرب من رأس الزوج وتودع فيها الرسائل القصيرة. يمكنك كتابة كل شيء له، تحديدا كل ما تحتاجين إليه. سيزيح ذلك عنك عناء الخجل»، تغمزُ بطرف عينها مضيفة: «كما أنّ ذلك ممتع بالنسبة للأزواج. صدقيني».

أحضرت السلة وضعتها بالقرب من السرير، ظلت السلة فارغة لعدة أسابيع، كانت تكتب الرسائل وتمزقها في سلة مهملات الحمام كل ليلة. لذا وجد الزوج السلة على المنضدة المجاورة لمخدة رأسه، مناسبة تماما لوضع محفظته وهاتفه النقال، وعلاقة المفاتيح.

الدرس الآخر الذي تعلمته من عمتها هو التدرب في الحمام، «من الصعب يا ابنتي أن تقول المرأة ما تريد لزوجها، ولكن يمكن أن تقول ذلك أمام نفسها أولا، تحديدا أمام مرآة كبيرة، تصرخ وتنفعل وتقول كل شيء دفعة واحدة، هذا التدريب الصغير، سيجعلها لاحقا وبأريحية كبيرة قادرة على قول ما تريد بدقة أكبر لزوجها».

لم يفهم الزوج إصرار زوجته على استبدال المرآة التي تمتد لنصف متر فوق مغسلة الأيدي في حمام غرفة النوم، بمرآة بطول متر ونصف وعرض متر، ولكنه استجاب لرغبتها، واحضر المرآة بعد مماطلة امتدت لأسبوع. فرحت الزوجة

بالمرآة، وانتظرت خروج زوجها إلى سهرة الأصدقاء، لتبدأ مهمة التدريب الأولى.

بعد استحمام قصير تحت دوش ساخن، انتظرت حتى يصفو وجه المرآة المضبب بالبخار. كشفت المرآة عن وجهها الأبيض المحمر من جرّاء الفرك، كشفت عن عنقها وأردافها، شعرت بنشوة غريبة إذ لم يتسنَ لها في حياتها أن تنظر لجسدها، لم تكن تظن أن ذلك مهم، أو ممتع حتى. كررت مع نفسها أمام المرآة، «تعودنا أن تكون أجسادنا ممتعة لهم، وحسب».

تضحك، والمرآة مستمرة في كشفها التدريجي عن تفاصيلها السرية كلما خفتت حدة البخار الساخن.

الفضول دفعها لأن ترفع جسدها، لتعلو به على حواف الحوض، لتتمكن من رؤية تفاصيله كاملة.

لكن سرعان ما انكمشت الضحكة، والنشوة. لتتعالى كآبة مفرطة في روحها، عندما انتبهت بغتة إلى صدرها الضامر، وبطنها المتهدل، ووركها الضخم، كتلة لحم بيضاء غير متناسقة. لأول مرّة تنتبه لجسدها من قمة الرأس، إلى أخمص القدمين، إلى سنواتها السبع والأربعين، فهي لم تتعود أن تنظر إلا إلى وجهها النضر. وجهها الذي تتجاوز به الأجزاء الأخرى المتصلة به.

انتابتها رغبة عارمة في البكاء. بكت بشدة. خرجت من

الحمام تلف جسدها بفوطة بيضاء. بكت على طرف السرير لساعة كاملة من دون توقف، دخل الزوج هلعا، ضمها إلى صدره، وهو يسألها عمّا أصابها. ضمته بقوة، انحشرت في صدره واستمرت في البكاء.. «أريدك أن تُعيد إليّ المرآة الصغيرة، لأرى وجهي النضر مرّة أخرى».

مــكيــاج

في الأسبوع الأول من زواجها فقدت رضية علبة المكياج الثمينة التي اشترتها خالتها لها بحرص من أحد المراكز التجارية في مسقط، كما فقدت ما تفقده الفتيات عادة في أول ليلة زواج.

أوصتها أختها حسنية أن تلبس قميص النوم الحريري الأسود القصير في ليلتها الأولى، ذلك الذي يكشف بوضوح عن بياض جسدها وتضاريسه البارزة، لكن حياءها منعها من ذلك، وهي التي تعتمر جلبابا فضفاضا منذ أن كانت في الصف السادس الابتدائي، وتسدل خمارا على وجهها.

فضلت رضية في ليلتها الأولى أن تلبس ثوبها القطني بني اللون، قصير الأكمام. وفي لحظة ارتباكها العارمة ورجفة أعصابها ووسواسها من شيء لا تعرفه، تسلّل إليها خليل بخفة من دون كلام زائد أو ملاطفة، ثم ما لبث أن اغتسل، وانشغل عنها بمكالمة هاتفية في بلكونة الفندق. بينما بقيت رضية على سريرها مغلقة العينين من دون نوم.

في صباح اليوم التالي اتصلت بها أختها حسنية، فكان



السؤال الأول عن الليلة الحمراء والقميص الأسود. بكت رضية وقالت لها إنه انشغل عنها. غضبت حسنية وعنفتها بقوة لأنها لم تلبس قميص النوم الحريري الأسود.

عندما جاء خليل لخطبتها لم يرغب حتى بالنظرة الشرعية، وترك الأمور تسير وفقا لترتيبات والدته. كانت رضية سعيدة وراضية. لم تكن أحلامها تتجاوز أن تجد رجلا يعرف ربه.

حسنية كانت امرأة جريئة. جريئة لدرجة أنها قبلت خطيبها قبل الزواج في فمه. أفشت حسنية بذلك السر الخطير لرضية عندما خطبها خليل. وضعت رضية يديها على وجهها واستغفرت الله مرارا وتكرارا. همست حسنية وهي تلكز رضية غامزة: «تعرفي أن القبلة الحرام تلك كانت ولا تزال ألذ ما حصل بيننا!!»، ثم انفجرت ضاحكة.

ضغطت رضية على حبات المسبحة بين أصابعها واستغفرت الله مرارا وتكرارا. . »أنا لا أريد أكثر من رجل يعرف ربه».

صلت رضية صلاة الاستخارة، فكان أن رأت فيما يرى النائم رجلا يسجد بخشوع. شعرت بارتياح هائل لمجرد رؤيته في الحلم، ثم ما لبثت أن أبصرت طلاءً أحمر اللون على أطراف السجادة. صحت فزعة من نومها.

قال الأب: «لا تفوتُ هذا الرجل صلاة في المسجد»، قالت الأم: «يُعيل عائلته منذ وفاة والده». قالت رضية: «وماذا أريد أكثر من ذلك؟».

يتحجج خليل بأعذار كثيرة ليخرج ليلا. مرة لأن أمه مريضة، ومرة لأن سيارة صاحبه معطلة، ومرة لأن رئيسه في العمل طلبه فجأة، ولا يعود إلا فجرا. يتوضأ ويصلي، ومن ثمّ يتناول رضية بين يديه وساقيه كمن يتناول وجبة سريعة، وينام.

بعد أسبوعين من الزواج عادا إلى الشقة التي استأجرها بالقرب من بيت أهله، قالت رضية في نفسها: «ستستقر الأمور الآن»، لكن الأمور ساءت أكثر فأكثر. أصبحت والدته وأخوته الحجة الجاهزة كل يوم.

وقفت رضية أمام المرآة، لتجرب القميص الحريري الأسود القصير. تغلبت على حيائها هذه المرّة، فلاحظت انحناءات جسدها وتموجاته الجذابة داخل القميص، ارتبكت وهي تمرر أصابع يديها لأول مرّة على كتفيها نزولا إلى صدرها، وكأنها تتحسس طعم رغباتها التي تُهدئها كل يوم بالصلاة والصبر. دخل خليل على غفلة منها، في لحظة التجريب تلك، في لحظة تلامسها الحميمي مع جسدها. نظر إليها من رأسها إلى أخمص قدميها، لم يتفاجأ بجسدها كما تفاجأت به هي، وكأنه مرّ على تمثال، أو قطعة أثاث جديدة أضيفت إلى الشقة في ساعات غيابه الطويلة.

سرت رجفة باردة في جسدها، أكلها الحياء والندم وهي تهرع إلى دورة المياه لتبدل ملابسها. فيما انشغل عنها خليل بمكالمة هاتفية خافتة للغاية.

في الليلة التي زارت فيها بيت أهلها، تركها وغادر، لم تسألها أمها عن التفاصيل، بينما التصقت بها أختها حسنية وأرادت أن تعرف ماذا فعل القميص الأسود الحريري، بكت في صدر أختها، ثم حكت لها: «إنه رجل مسحور. أو أنني امرأة محسودة. مرّة أراه معي ومرّات ليس معي. مرّة أنا زوجته اللصيقة، ومرّات كثيرة أنا على الرف».

استنتجت حسنية وجود امرأة أخرى في حياة خليل، فطلبت منها أن تنظر في هاتف زوجها. رفضت رضية أن تفعل ذلك وبشدة.

في هاتف خليل كان هنالك رقم غير مخزن باسم. ترك عدة مكالمات فائتة، وفي صندوق الرسائل عثرت رضية على ثلاث مسجات أرسلها الرقم المجهول الهوية. المسج الأخير «اشتقت لك»، المسج قبل الأخير تصادف إرساله في ليلة زواجها بخليل: «يا خوفي أن زوجتك تاخذك مني»، المسج الأول كان قبل الزواج بأيام: «أنا ما أتحمل حد غيري في حياتك». فتحت الرسائل المرسلة فكان أن قرأت المسج الذي أرسله خليل ليلة العرس: «أوعدك محد يقدر ياخذني منك».

كاد أن يغمى عليها. شعرت أنها ستموت. ستجن. ما قالته أختها حسنية كان حقيقيا. داخت الأسئلة في رأسها، «هنالك امرأة أخرى.. لكن لماذا تزوجني إذا كانت هنالك امرأة أخرى.. هل أجبرته أمه على ذلك!!».

أعادت الهاتف إلى مكانه، أكملت نوبة بكائها في دورة المياه. مكانها السري المخصص للبكاء، ولم تجرؤ على الاتصال بالرقم المجهول الذي حفظته عن ظهر قلب.

يأكلان ويشربان معا، يذهب إلى عمله، ويعود متأخرا يتناول وجباته سريعا، الأحاديث بينهما مقتضبة وتافهة وبلا معنى في غالب الأحيان. تجمعهما المواضيع العامة، وتغيب المواضيع الخاصة، فمحاولاتها تبوء دائما بالفشل.

لم تجرؤ طوال الأشهر الثلاثة التي جمعتها به أن تسأله عن ثلاثة أشياء كانت تقف بصعوبة في حلقها، وتقاوم بصعوبة ابتلاعها إلى داخل قلبها.. الأول يتعلق بسريرهما البارد من دون أسباب واضحة. الأمر الآخر يتعلق بالرقم غير المحفوظ الذي يراسله ويتصل به بشراهة- قالت حسنية الرقم الذي نتواصل معه ولا نخزنه يعني أننا نخشى أن يكتشفه أحد غيرنا، لذا نفضل أن نحفظه في قلوبنا- الأمر الثالث كان يتعلق بعلبة المكياج التي اختفت في غرفة الفندق، ولم تجدها إلى يومها هذا. رغم أنّ حسنية حلت لها المشكلة الثالثة بسهولة، عندما أهدتها علبة مكياج جديدة.

لحظة دخول خليل إلى الاستحمام كانت هي اللحظة الحاسمة لتفتيش هاتفه المحمول. المسج الجديد الذي عثرت عليه رضية كان يحمل جملة قصيرة، ومحددة.. «موعدنا الليلة في السيح». انتفض قلبها، «كيف يقبل خليل لنفسه

علاقة غير شرعية، وهو الرجل الذي تعلق قلبه بالمسجد! لكن لماذا لم يتزوج بالمرأة الأخرى إذا كان قلبه معلق بها إلى هذه الدرجة!!»

في كل يوم كانت تُغير ملابسها. تُغير تسريحة شعرها. غيرت ذوقها قطعة قطعة، كما نصحتها حسنية التي تعيش زواجا حميميا منذ أربع سنوات. لكن كل شيء لم يكن يجدي نفعا مع خليل الممتلئ بامرأة أخرى.

قالت رضية لحسنية عدّة مرّات وبأساليب مختلفة: «لا يعتني بي. لا يسأل عني. لستُ زوجته إلا في السرير. ثمة ما هو ناقص بيننا، ولا استطيع أن أجد له تفسيرا»، ثم ما تلبث أن تُغير الموضوع: «لا تهمني هذه الأشياء، ولا أفكر فيها. أريد إعادته إلى الطريق القويم وحسب»، ضحكت حسنية حتى كادت أن تقع عن الكرسي الذي احتمل ثقلها، مستلذة بأكاذيب أختها وتبريراتها اليومية، وهي تسأل عن وصفة تُقرب الزوج من زوجته.

في غياب خليل تتخيل رضية كيف يحضن المرأة الأخرى، ويقبلها ويُسمعها الكلام الذي تود سماعه. تذكرت ما قالته حسنية عن القُبلة الحرام ولذتها. نفضت رأسها واستغفرت الله، ثم صلت طويلا.

في تلك الليلة خرجت رضية من دورة المياه بخفة من دون أن تُحدث صوتا. تركت قطرات الماء تتدحرج بخفة من

شعرها ووجهها ويديها، بينما الفوطة الصفراء تستر صدرها وأعلى ركبتيها. اقتربت منه، بينما كان وجهه مواجها لمرآة التسريحة، وظهره في اتجاهها مباشرة.

مدت رضية أطراف أصابعها لتستقر تماما على كتفيه، إلا أنها ما لبثت أن استردت أصابعها، وكأن مسا كهربائيا أصابها وسرى في أعصابها.

تراجعت بخطواتها إلى الوراء، قبضت صراخها بيديها، ولم تفلت منها إلا أنفاسها المتعالية. بينما خليل منشغل بوضع الروج الفاقع على شفتيه.

طوفة

لم تعد تحب رقم أربعة. عندما أراد أن يسخر منها، قال لها: «اضربي رأسك في الطوفة»، وعدّد لها طوف الغرفة الأربعة واحدة، اثنتان ثلاث كمن يلقن صبيا درسا في العد. تجاهلته، انسحبت من أمامه، وبدلا من أن تضرب رأسها بـ«الطوف الأربعة» أرخت رأسها على الوسادة اللينة في غرفة الجلوس، ونامت حتى الصباح. في كل مرّة يشتد بينهما الخلاف يُشير بإصبعه إلى «الطوف» الأربع.

رأسها ثقيل هذه المرّة. انسحبت قبل أن ينطق كلمته المعتادة. في اللحظة التي شعرت فيها أن دمعة مالحة ستنزلق على خدها إذا ما فتحت فمها بكلمة. بخفة انتعلت حذاءها الرياضي وأدارت محرك سيارتها في ساعة متأخرة من الليل، متأكدة من أنه لن يلحق بها. سيبقى متبلدا على الكرسي الهزاز يقرأ أحد كتبه السخيفة، وعندما يغلبه النوم سيلقي بجسده على السرير وينام.

سماها والداها «زينة» لأن كل من نظر إليها يوم ميلادها الأول، شعر بزينها وجمالها. حكت لها أمها لاحقا في عدة

روايات، تتغير تفاصليها في كل مرّة: «كل اللي شافوك وأنا بالمستشفى قالولي البنت زينة وغاوية، وعشان كذاك سميتك زينة يازينة».

طولها فارع وجسدها رشيق وروحها بخفة الريشة، لقّبها أبوها «بنت النكتة» كانت تضحك كثيرا، وما إن تدخل البيت حتى تثيره بالضجيج والفرح. بكى والدها كثيرا عندما فكرت بالزواج، «بنت النكتة بتروح بيت رجال ثاني، وأنا اللي ربيت وكبرت»، لكن أمها فرحت كثيرا، ورقصت مع جاراتها من دون إعياء «وعيني يا بو فانيلة وسرى الليل. . شحليلة. . »

في الزيارة الأولى بعد أسبوع العرس، تغيرت «زينة». كانت خطواتها ثقيلة، ونُكَتُها منطفئة، وجسدها ثقيل. دُهش الأب: «البنت متغيرة عن أول!». لكزته الأم بكوعها: «تراها عروس جديدة ومخجلة».

مرّت ثلاث سنوات، و«زينة» تنزلق في عتمة لا يفهما أحد، ولم تجرؤ هي على أن تُحدث بها أحدا.

عندما جاء لخطبتها، رقصت «زينة» في المطبخ مع بنات خالها وعمها وهي تحضر «الفوالة»، قالت لها أمها: «سوي عقل يا بنتي. . الزواج مسؤولية»، تعلقت «زينة» بحضن أمها بفرح طائش: «بس أنا أحبه. . أحبه»، وأطلقت بنات العم والخال الزغاريد التي امتد صداها إلى مجلس الرجال.

تمّ كل شيء بسرعة، وانتقلت «زينة» إلى عشها الجديد في

مسقط. اضطرت لأن تبدل عملها في البنك الذي كانت تعمل فيه مع فتاة أخرى كانت راغبة في الانتقال إلى البلد. دخلت «زينة» عشها الجديد بجرأة ونط ورقص، واصطدمت برجل ثلجي.

توقفت «زينة» عند مقهى صغير مطل على البحر. لم تكن قادرة على تمالك رغبتها في البكاء. وضع الجرسون «المنيو» على طاولتها، كما وضع ابتسامة باردة على وجهه. طلبت ليمونا بالنعناع. دخلت إلى الحمام لتُعدل وضع كحلها الذي سال في نوبة بكاء طويلة من البيت إلى المقهى. عندما عادت إلى طاولتها كان رجل عجوز وامرأة عجوز قد احتلا طاولتها المطلة على البحر بالرغم من أنها قد تركت نظارتها الطبية كإشارة على حجز الطاولة التي تعودت دائما الجلوس إليها. ما أن اقتربت منهما حتى وضع العجوز يده على يد المرأة.

جلست على الكرسي الثالث وقالت بصوت مرّنته لكي يكون مرتفعا بعد نحنحة قصيرة: «عفوا . . هذي طاولتي»، ثم أشارت إلى النظارة التي بقيت مهملة على طرف الطاولة «وهذي نظارتي. . أنا جيت قبلكم!». التفت إليها العجوز وقال بابتسامة مشرقة: «بتعرفي أن أنا وهذي المرأة الجميلة ما التقينا من عشر سنين، صارلي عشر سنين بشتغل في عُمان وما نزلت على عمّان». جاهدت «زينة» لتغير دفة الموضوع، وتعاود الحديث عن الطاولة: «عفوا بس يا عمي هذي. . .»، تأمل

العجوز التي بجواره، والتي ظلت تبتسم على استحياء كالمراهقات، وتابع قائلا: «عمر زواجنا ضعف عمرك يمكن. . .». غضبت «زينة» أرادت أن تقلب الطاولة عليهما، في اللحظة التي وضع فيها الجرسون كوبا من عصير الليمون بالنعناع أمامها، محافظا على ابتسامته بنفس المقاس الذي يوزعه على جميع مرتادي المقهى. انسحب قبل أن تطلب منه سحب العجوزين عن طاولتها. حرّكت القشة في العصير متجاهلة من حولها مستمتعة ببرودة العصير، واسترسل العجوز ثرثرته واضعا يده بحنو على كتف العجوز: «أنا يمكن حبيت أكتر مما تتصوري، ويمكن هي كمان حبت وحبت أكتر مني. . بس يا بنتي أنا عندي وصفة تُطيل الزواج»، ابتلعت كمية كبيرة من العصير دفعة واحدة. شعرت بأعصابها تسترخي. تابع العجوز قبل أن تمنحه أية إشارة للاستمرارية: «دايما بفكر أن في هالزوجة الرائعة 70٪ من الأشياء اللي أحبها، بس ليش لما بعصب بفكر في 30٪ الموجودة فالنساء الأخريات. .فكري بكلامي. . هذه الوصفة هي اللي خلت عمر زواجنا يمتد لضعف عمرك!».

لم تستطع زينة أن تتحمل منظرهما المقزز وهما يتلامسان ويندفعان لتقبيل بعضهما البعض أمام عينيها. صرخت عاليا جدا، وقد أوشكت الطاولات أن تفرغ من مرتاديها، «جرسووووون». جاء الجرسون، انحنى أمامها بتهذيب كبير،

«عفوا . . لا يمكن أن نحضر لك طلبا آخر، إننا نغلق المحل الآن». أشارت بإصبعها: «كيف تسمحون بهذا العبث في مقهاكم اللعين»، وأشارت بإصبعها إلى الطوفة، إلى الطوفة وفقط!

انكمشت ابتسامة الجرسون لأول مرة أمام زبون، كما انكمشت زينة برعب لدى اختفاء العجوزين من مقعديها.

وانسلّ الجرسون راكضا إلى الداخل، وهو يطلق حركة صامتة إلى زملائه الآخرين. حركة فهموها بسهولة كما التقطتها أعينهم. في اللحظة نفسها التي وقفت فيها زينة، وضربت برأسها على الطوفة من دون توقف.

يـــدان

تنامُ داخل قميص نومها الأبيض الفضفاض، ذاك الذي يشفُ عن جسدها الأسمر. تضمُ ذراعيها إلى صدرها، وساقيها إلى أسفل الذراعين، بينما الكاميرا تنطُ عاليا لتصطاد تكورها الغريب.

الإضاءة الخافتة توحي بالليل. الكاميرا تتجول بين أشياء الغرفة، لترمق التفاصيل بعين جديدة.

تقفُ الكاميرا عن التحرك قليلا عند الصورة المعلقة على الحائط، حيث تظهر المرأة في فستان أبيض، وإلى جوارها عريس أنيق. لكن المرأة التي تنام على السرير مُغلقة العينين تبدو مختلفة عن الصورة المعلقة، فهي ترقدُ من دون «مكياج»، ومن دون تسريحة الشعر تلك، من دون التاج فوق رأسها، من دون ابتسامتها، ومن دون أن ينحني رأسها على كتف عريس مهذب.

الكاميرا تقتربُ الآن من يديها الناعمتين، وبينهما طفل صغير يُشاكس لفته البيضاء، وبريق الشغب يقفز من عينيه. المرأة المغمضة العينين مستمرة في تكورها الغريب،

وابتسامتها تطفر بالاشتياق، وبأشياء أخرى لا يمكن التكهن بها.

يخرج الطفل من اللفة البيضاء، يرتدي دشداشة كحلية اللون. شعره انسدل إلى كتفيه. يحاولُ جاهدا أن يُفك ذراعيّ المرأة الملتفتين حول خاصرته، تضربُ ساقاه الصغيرتان ركبتيها فلا تتزعزع من مكانها. يداها كقبضة من الحديد ترفضان الاستجابة.

تتجول الكاميرا مجددا في الغرفة. ثمة سرير خشبي عريض تنكمش المرأة والطفل في إحدى زواياه، وتبقى الزوايا الأخرى فارغة إلا من البياض.

بجوار السرير، وتحديدا على المنضدة، هنالك علبة محارم تكشف عن رأس منديل أبيض، وعلى النافذتين تنسدل ستائر مخملية خضراء اللون. مرآة التسريحة نظيفة، وثمة علبة مكياج مفتوحة تطل منها أصابع الروج، وأسنان مشط، ورموشا اصطناعية.

تقفُ الكاميرا فوق السرير حيث المرأة المنحنية كجنين، وبين يديها طفل في السادسة من عمره، استطالت ساقاه وأوشكت أن تصل إلى عرش قدميها. لكنها لم تصل. تضربُ رجلاه الهواء تارة وأسفل ساقيّ المرأة تارة أخرى.

يداه الآن قويتان إلا أنهما لم تفلحا في فتح يديها المغلقتين من حوله، تحولت مناغاة الصبي إلى كلمات غير مفهومة كان

قد تعلمها من الهواء ومن السرير والمنضدة، ومن الأوقات الطويلة التي قضاها مع امرأة صامتة.

تُكمل الكاميرا جولتها. تقفُ هذه المرّة عند خزانة الملابس التي تُركت إحدى فردتي بابها مفتوحا، وكشفت عن ملابس قاتمة، وأخرى مزهرة بالألوان، وفي الرف العلوي تمكثُ حقائب يد ملونة في صف واحد.

سقطت لقطة الكاميرا على وجه المرأة المجعد. ذهبت نظارتها فجأة، انحنى ظهرها أكثر من السابق. التجاعيد امتدت إلى يديها المغلقتين على شاب في الثلاثين من عمره طال شعره إلى ظهره، واستطالت لحيته وشاربه. أصبحت يداه المشعرتان أكثر قوة مما مضى.

ظل الشاب يضرب اليدين بكل ما أوتي من قوة. برز وجه المرأة منكمش وذابل في لقطة مقربة. اشتد ضرب الشاب الثلاثيني إلى أن اهتز جسد المرأة. التقط أنفاسه. زمجر كما يزمجر أسد في قفص قديم ثم عض يديها.

انتبهت الكاميرا إلى خيط الدم الذي انسكب من اليدين المعروقتين. لكن ما لم تخطئه الكاميرا هو الأصابع التي أصبحت قطعة واحدة ملتصقة ببعضها البعض. هكذا ذابت الأصابع في الأصابع. لم تعد يداها من لحم ودم. أصبحتا قطعة عظم جافة وصالحة تماما للنهش.

ظل الشاب يرفس بقدميه تارة، ويعض اللحم الناشف تارة

أخرى. أصبح جسده أكبر من جسدها الضئيل ودشداشته عسلية اللون توشكُ أن تغطي قميص نومها الأبيض الفضفاض.

الكاميرا تهتز كلما اهتز الشاب، الكاميرا تهتز كلما اهتاج الجسدان في عراكهما الصامت. تهتز ودموع المرأة تبلل خديها.

عيناها مغمضتان، والأسنان تعض الشفة السفلى بقسوة إلى أن تدمي.

يكسر الرجل الأربعيني يديّ المرأة المتخشبتين، كمن يكسرُ غصن شجرة ميتة، أو كمن يدق عنق أفعى جامحة، ثم يزيحها بتأنٍ من حول جسده، يقلبها على ظهرها، ليتمكن من النهوض عنها، فيما كان وجهها الذابل يولول بالألم الصامت.

الكاميرا تُلاحق جسدها الذي ما أن فقد إنكماشه وتكوره الجنيني حتى عاد ليصبح أطول من المعتاد، كما أنّ قدميها استطالتا خارج حواف السرير.

يمشي الرجل الخمسيني بخطوات متعثرة. مترنحة، كمن خرج من قبر أو حانة. تُتابع الكاميرا تعبه وهذيانه. يصل إلى آخر الغرفة، يصفق الباب خلف ظهره ويمضي.

العدد الكبير من الرجال والنساء الواقفين خلف الكاميرا هتفوا عاليا للرجال والأطفال والمرأة الذين خرجوا فجأة من أماكن مختلفة من الغرفة، وانحنوا للتصفيق.

وسواس

سار الرجل مع عامل مزرعته لمسافة طويلة في الصحراء من دون أن يعرف عامل المزرعة إلى أين يسيران، إذ لم يكن من عادته أن يسأل. كانت الحرارة ملتهبة في تلك الظهيرة إلا أنهما لم يتوقفا عن حث الخطى. شاهد الرجل قفصا كبيرا به أفعى عملاقة كلما فتحت فمها تهيأ له أنها تستطيع أن تلتهمه هو وجمله الذي يركبه في لقمة واحدة، فأمر الرجل عامل المزرعة قائلا: خذ الأفعى وغطسها في الماء.

فتساءل العامل قائلا: «كيف أغطسها في الماء، وليس ثمة ماء في الصحراء، ثم ماذا يخيفك منها، وقد حبست في قفص كبير كهذا بفتحات تهوية صغيرة لا تستطيع أن تخرج منها؟» تشنج الرجل أكثر، طفر الغضب من عينيه: «قلت لك خذ القفص، وغطسه في الماء. إني أخشى أن تأتي زوجتي فتعضها وتموت». زاد تعجب العامل، ودهشته: «وماذا يجيء بزوجتك إلى هذه الصحراء البعيدة؟». رفع الرجل يده ليحسم الجدل بشكل نهائي: «لا تجادلني الآن. غطس رأسها في الماء فلن يقتلها إلا الغرق».

صمت عامل المزرعة ثم قال: «فماذا لو قلت لك أن الخوف ليس من الأفعى الكبيرة المحبوسة في الخارج، وإنما من الأفعى المحبوسة في جيب دشداشتك؟». انتفض الرجل في مكانه، ثم أبصر جيب دشداشته المنتفخ، وتلك الحركة الدائرية التي لا تنكفئ عن إصدار تموجاتها، وجلدها الناعم يكاد يلامس فخذه من خلف الدشداشة، والإزار. جُنّ جنون الرجل، ثم صرخ في عامل المزرعة: «أخرجها من جيبي. أخرجها. سأموت إن لدغتني. سأموت..»

في لامبالاة -غير معتادة- رفع العامل كتفيه وقال: «إنها في جيبك أنت، ولن يخرجها سواك، وستموت إن حاول غيرك أن يخرجها. ببساطة لا أحد يعرف أين يقع رأسها الآن». اختلفت نبرة صوت الرجل، تكسر صوته، وخالطه ما يشبه البكاء والرجاء: «أرجوك أخبرني.. أين رأسها؟.. أين رأسها؟.. أخبرني».

تأمل عامل المزرعة جيب الرجل المنتفخ، وتفحصه جيدا رغم الحركة الكبيرة التي كانت تُصدرها الأفعى ثم قال: «أظن أن رأسها في أسفل نقطة في جيبك. امسكها مسكة واحدة، فإما أن تصيب رأسها فتحيا، وإما أن تخطئه فتموت».

اقشعر جسد الرجل، وبقي جامدا من دون حراك إذ شعر أن الموت يُحاصره من كل الجهات. إلى أن اقتنع بأن ما قاله عامل المزرعة هو عين الصواب. فمسك الرجل أسفل نقطة

في جيبه فوقعت يده على رأسها تماما. سمع فحيحها قويا، وهو يهرس رأسها ما بين إبهامه وسبابته إلى أن أحس بسخونة السم والدم وهما يسيلان معا على فخذه.

صحا الرجل من نومه فزعا، وقد بلل فراشه بالبول، ووسادته باللعاب الكثير.

تعوذ من الشيطان مرارا، ثم شرب جرعة ماء كبيرة من كأس كان بالقرب من سريره. تعوذ مرة أخرى من الشيطان، وهو يسمع فحيح الأفعى يخرج من تحت البطانية، ومن الجدران، ومن كل مكان.

الموزة المعلقة في السماء

اسمي تيم، ويُفضل من في البيت أن يُطلقوا عليّ اسم «تيمو». لديّ صديق لا تراه أمي ولا أبي يلعب معي في غرفتي ويستحم وينام معي بسرية تامة. اسمه أيضا «تيم».

لديّ لعبة قطنية تزاحمني السرير، وهي بطولي تقريبا اسمها «تيم»، وسيارات وطائرات تملأ الغرفة بالفوضى. كلها تحمل اسم «تيم». هذا الأمر كان يُغضب أمي كثيرا، فكلما طلبت مني أن أحضر شيئا، أجيبها ممازحا تقصدين «تيم!»

ما حدث هذه المرة كان غريبا، فبينما أقود دراجتي شاهدتُ ما يُشبه الموزة في السماء، ظلت الموزة تلاحقني. تلاحقني في كل الأمكنة التي أذهب إليها.

تركتُ الدراجة، وهرعتُ لأحتضن ماما، «انظري يا ماما .. موزة كبيرة في السماء تلاحقني، وتنظر إليّ طوال الوقت».. ضحكت أمي: «إنها ليست موزة. بل هلالا. سيكبر قريبا ويصبح قمرا».

الموزة الصفراء كانت هلالا إذن. ظللتُ طوال الأيام اللاحقة ألاحقه ويلاحقني.

أقود دراجتي على الأرض، بينما يعبر السماء بنفس سرعتي، بالرغم من أنني لا أرَ دراجته الخفية.

أخبرتُ أمي أنّ الموزة تكبر. وتكبر كل يوم. قالت أمي: «الهلال سيصبح قمرا مكتملا».

أجلسُ على سلم بيتنا. أراقبه ويراقبني. له مثلي. وجه دائري مثلي

لكنه لم يفتح عينيه بعد، ولم يبتسم طوال الأيام التي عرفته فيها. أختي «يارا» تعلمت بسرعة كيف تفتح عينيها الصغيرتين من دون أن يساعدها أحد في ذلك.

لكن القمر لم يفعل ذلك.

أخبرتُ صديقي المتخفي «تيم» عن ذلك فلم يكترث لأمر القمر الذي لا يفتح عينيه. طلب مني أن نلعب في «الزحلوقة».

احتضنتني أمي بقوة بعد عدّة أيام وقالت: «كبرت يا تيمو وستذهب قريباً إلى المدرسة»، قلتُ لها: «الموزة المعلقة في السماء كبرت يا أمي. فهل ستذهب معي إلى المدرسة أيضا؟».

ضحكت أمي..

فضحكتُ لها..

عندما اشتد الزحام في الشارع العام، لاحظ إلياس أني اضرب مقود السيارة في استعجال، فرفع يده من مقعده الخلفي، وقال بصوت مرتفع: (ابركا دبرا، اختفي أيتها الزحمة)

تظاهرت أن الشارع استجاب لقوة سحره، وأنا اسلك طريقا جانبيا. شكرته لأنه أنقذنا من انتظار طويل.

كبرت اللعبة أمام صحن الغداء الذي لم يستطع إتمامه، وبينما أنا منشغلة عنه به: حرك إلياس يده السحرية فوق الطبق (أبركا دبرا .. احتفي يا لقيمات الأرز والسمك في فمي الآن) ثم كمن سرى بجسده السحر، تناول كل محويات طبقه.

- تنفس إلياس الصعداء أمام واجباته المدرسية المملة، لكن إيمان
السحرية حوله فجأة إلى آلة قادرة على ابتكار المعجزات: (أبركا دبر
واجباتك يا إلياس)

راقت لي اللعبة كما راقت له، وفي المساء وبعد أن أعددت له السرير وهي
باكر، غضب إلياس، ورفض النوم متعللا بنشاطه الزائد، ورغبته بمشاهدة
لكن لا مجال لمناقشتي فيما يتعلق بالنوم. أريته الوجه الناشف الذي لا يح
يده السحرية في وجهي هذه المرة وقال: (أبركا دبرا .. احتفي يا ماما)



